الجزء ٣ المجلد ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق): آذار سنة ١٩٢٨ م الموافق رمضان وشوال سنة ١٣٤٦ هـ

ابو حيان التوحيدي

عصر التوحيدي

ان القرن الذي أولد التوحيدي، وشبّ فيه واكتهل وشاب، هو العصر العباسي الثالث، فسدت في تضاعيفه عصبية بني العباس، فلم تبق لهم كلمة مسموعة، ولا رأي جميع، ولا قوة نافذة، ولا كيان يُرتجى معه البقاء، دخلت الاعاجم منذ قرن وتسلطت على امور الدولة، ودب دبيبها في جسم العباسيين، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الامور تلتوي، ودولة الخلافة تخرج عن الصورة التي رسمها لها الاسلاف، وشمل الضعف معظم أوضاعها، وعاث سوس فساد الغريب في ذاك الجسم العظيم، وتناثر عقد البلاد الاسلامية وانتقصت من أطرافها، والاهواء مشتتة، والنفوس شعاع.

لم يكد ينسلخ الربع الاول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط، واستأثر البريديّ بالاهواز وأعمالها، وذهب ابناء بويه الديلميّ بفارس والرّيّ وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل، وغدت خراسان وماوراء النهر بيد السامانية، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في ايدي بني حمدان، وانتقلت مصر والشام الى الإخشيدية، والبحرين واليمامة الى القرمطي، والمغرب وإفريقية الى القائم العلوي، والاندلس للناصر عبد الرحمن الأموي.

ولم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق، وليس للخليفة وزير، وانما كان له كاتب يدبر إقطاعاته واخراجاته القليلة، وكلما امتدت كلمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملك او امير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة . وهكذا كانت مملكة بني العباس نهبَ ايدي الاتراك والديلم — والاتراك جيل من الترك معروف والديلم سكان الجبال في فارس — وكلهم شاركوا العرب في سلطانهم بل حاولوا نزع تراثهم من ايديهم .

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم ، فقتل المقتدر ، وبويع للقاهر ثم خلع ، وخلفه الراضي ، واستخلف المتقي ، ثم بويع للمستكفي وهو كأكثر من سلفه مغلوب على امره . وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الإخشيديين ، ودولة الفاطميين تستولي على مصر (٣٦٣) ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي ، وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك . وقد أصبح خليفة بني العباس أشبه بصاحب منصب ديني له القول ولغيره العمل ، هو يملك الاسم والجسم يستغله المستغلون من المتغلبين والمتوثبين ، والبلاد تخرب والنفوس تهلك ، حتى لقد خربت بغداد عند استيلاء البويهيين عليها واخذوا بتجديدها ورمّها لاول امرهم وكانت في القرنين الثاني والثالث أعمر مدينة في الارض . وكان القرامطة[1] خلال ذلك القرن يعيثون في البلاد ، فعلوا أفاعيلهم في العراق ثم تعدوا الى الشام بعد ان عبثوا بمقدسات الامة في الحجاز وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزّاع الى الفتنة .

اما الروم فكانوا يغادون الشام القتال و يراوحونها ، ودولة بني حمدان كفت البلاد عاديتهم . وفي خلال هذا القرن انقرضت دول ولا سيما السامانية والإخشيدية وقام محمود بن سبكتكين رجل ذاك القرن فاستولى على خراسان وامتدت فتوحه حتى فتح جزءاً مهماً من بلاد الهند والشرق .

* * *

(١) القرامطة نسبة لمحمد بن قُرمط لقب بذلك لقرمطته اي تقريبه في خطه او خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحالة العلمية والاجتماعية في عهده

وفي هذه المملكة بل الممالك التي كانت تتخبط في أقدارها ، وتختلط امورها بايدي أخيارها وأشرارها ، نشأت زمرة صالحة من العلماء والادباء ، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل القرن الثالث . وقد تضعف السياسة في أمة وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها ، علومها آخذة بالنظام الذي كان لها على عهد سيادتها ، كما قيل « يفنى القميص وفيه ريح المندل » ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، ممن ارادوا ان يكون في جملتهم الأجلاء والفضلاء ، يستأثرون بهم دون جيرانهم ، ويزينون بهم ملكهم ، اويستخدمونهم ليعينوهم على قيام امرهم ، او يختارون طبقة من الادباء والشعراء ، ينادمونهم ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيعتزون بهم عند القريب والغريب ، والبغيض والحبيب . فكانت في هذه السبيل تجاري بغداد كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمذان وأرجان وكرمان والري وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة .

وتنوعت المذاهب التي غلبت على البلاد ، فكان اهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة ، وفي بغداد من جميع النحل وفيها غالية يحبون معاوية ، ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، ويهود اقليم الجبال اكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زردشت المعظمين للنار وسائر الانوار بقيت منهم بقية مهمة الى هذا القرن في العراق والاهواز وفارس وأصبهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الاسلام . ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجد فيه الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة ، ومنها ما كانت شيعته غالية ، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث ، واكثر اقليم خوزستان معتزلة ، وفي الاقاليم الاخرى شيعة وحنابلة وشوافع . والفتن كثيراً ما تقع بين الحنابلة والشوافع في بغداد او بين السنة والشيعة في دار السلام وبعض أصقاع فارس والجبال وما اليها فيفني بعضهم بعضاً .

والحنابلة في بغداد يثورون على المنكرات ينكرونها بالعنف ، ويقضون عليها بالقوة ، ويتدخلون في امور لو كان للحكومة بعض قوة ما وقعت ، كما فعلوا في بغداد يوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مات محدث الامة ومؤرخها ابن جرير الطبري ومنعوا دفنه في المقابر ، لانه لم يذكر الإمام احمد بن حنبل في جملة الفقهاء وعده في المحدثين ، وكما وقعت فتنة عظيمة في بغداد بين الحنابلة وخصومهم قتل فيها خلق كثير من الجند والعامة وذلك بسبب خلاف نشأ في تفسير قوله تعالى : « عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » . فقال ابو بكر المروزي وأصحابه بقول ، وقالت الطائفة الاخرى بآخر ووقع الهرج والهيج .

ومن اجل هذا اعتصم بعض العلماء والحكماء باهداب التقية [1] خشية العامة [2]

(١) التقية مشتقة من اتقاه اي خافه وهي ضد العلانية ، وكان المسلمون لاول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيداروته اذا كان قوياً من غير ان يستحلوا دماً حراماً او مالاً حراماً اوغير ذلك من المحرمات او يظهروا الكفار على عورة المسلمين . واختلفت الفرق الاسلامية في التقية ومنها التي تجوزت فيها كثيراً وبعضهم حدد لها شروطاً ولاسيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباطنة . والعقل يقتضي بان يستعمل في دار التقية ما لا يستعمل في دار العلانية .

(٢) قال ابو عبيدالله المَرْزُباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ في الموشح : حدثني احمد بن محمد بن زياد قال : سألت اباالغوث عن السبب في خروج ابيه عن بغداد ، فقال لي : كان ابي قد قال في قصيدته التي رثى فيها اباعيسى بن صاعد ابياتاً ، وجد بها بعض اعدائه عليه مقالاً ، فشنع عليه انه ثَنَوِيٌّ ودارت في الناس ، وكانت العامة حينئذ غالبة ببغداد ، فخافهم على نفسه فقال لي : قم يابني حتى نطفئ عنا هذه الثائرة بخرجة ثم فيها ببلدنا ونعود ، قال : فخرجنا ، وأقام فلم يعد . قال والابيات :

اخيَّ متى خاصمت نفسك فاحتشد ... لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدقِ
ارى عالَم الاشياء شتى ، ولا ارى التـ ... ـجمع الا علةً للتفرق
ارى العيش ظلا توشك الشمس نقله ... فكِس في ابتغاء العيش كيسَك أو مُتِ
ارى الدهر غولاً للنفوس ، وانما ... بقي اللهُ في بعض المواطن من بقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لِمْ مضى؟ ... وعرِّج على الباقي فسائله لم بَقِي
ولم ار كالدنيا حليلة ولهٍ ... محبٌّ متى تحسن بعينيه تطلُق
تراها عياناً وهي صنعة واحد ... فتحسبها صُنْعَي حكيم واخرق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجهلة السلاطين ، ممن قد يحرصون على مراعاة العامة اكثر من حرصهم على رضا الخاصة ، والتقية واجبة في مثل هذه الاحوال ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وارباب العقول الكبيرة . وكان التوحيدي الذي يعنينا الآن تحليل حياته ، ووصف عمله ، احد أساطين تلك الحلبة حقبة من الزمن ، والحركة الدائمة في الافادة والاستفادة . والعقل الكبير والعامل الجبار ، ملئت ايام حياته بغرائب فكان عجباً في نفسه ودرسه وقوة انتاجه على معاندة الدهر له .

نشأته وأعماله

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبة فيما قيل للتوحيد وهو نوع من التمر كان يبيعه ابوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقيل ان التوحيدي نسبة للمعتزلة ، لانهم يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد ، وهو الارجح . ذكروا في اصله انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي ، ولا يعلم ان كان أجداده عرباً صرفاً او فرساً استعربوا ، وكنيته ابو حيان ، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع او في أوائل العقد الثالث وعُمّر لانه مات على رأس الاربعمائة او بعدها بقليل .

نزل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج في النحو بابي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني ، وبالفقه الشافعي بابي حميد المَرْوَرُوزي وابي بكر الشافعي ، وحضر في أوقات مختلفة بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عَدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة . فجاء مفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الاقدمين في عصره عد حكيماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد نسامحه ، وأصبح يُحكّم عقله فيما يرى ويسمع ، لا يأخذ الاشياء على ظواهرها بل يعمق البحث ويواصل الدرس والنظر ، غير متحيز لفئة ، ولا متعصب لرأي جماعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصفه ياقوت بانه كان جاحظياً ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، و يشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الادباء ، واديب الفلاسفة ، ومحقق اهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لانظير له ذكاء وفطنةً ، وفصاحةً ومكنةً ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حُفَظَة واسع الرواية والدراية . قال : ولم أر واحداً من اهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب . وقال فيه انه صوفيّ السمت والهيأة ، وانه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكيّ في فقهاء الشافعية وقال انه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه ، وآخر ما أُخذ عنه بشيراز سنة اربعمائة .

ولابي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة ، و كتاب المقابسات او المقابسة وكتاب الاشارات الالهية جزآن ، والرد على ابن جنيّ في شعر المتنبي ، و كتاب الامتاع والمؤانسة جزآن ، وكتاب الزلفة جزء ، و كتاب رياض العارفين ، و كتاب تقريظ الجاحظ ، و كتاب مثالب الوزيرين[1] و كتاب الحج العقلي اذا ضاق

(١) اطلع ياقوت الحموي على بعض كتب التوحيدي أوائل القرن السابع ونقل منها كثيراً في كتابه معجم الادباء فمنها اطلع عليه ومنها ما كان بخط المؤلف كتاب تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ و « مثالب الوزيرين » و «الإمتاع والمؤانسة» و« كتاب المحاضرات او محاضرات العلماء » . وفي مكاتب الاستانة نسخة من مثالب الوزيرين وفي دار الكتب بدمشق الجزء الاول من الاشارات الالهية وله مختصر محفوظ في دار كتب الامة ببرلين . وفي دار الكتب الامبروزيانية في ميلانو بايطاليا الجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة ونسخة من كتاب البصائر له وفي مكتبة الفاتح في الاستانة خمس نسخ مخطوطة من كتاب البصائر والذخائر وفي دار الكتب في ليننغراد نسخة من الحجيج للتوحيدي . وفي كتاب في التصوف كان بدمشق فبيع مؤخراً في القاهرة وهو مكتوب بالقلم الكوفي ذكر لابي حيان وعده المؤلف في المتصوفة واقتبس من عباراته على ما حدثني الثقة ولم يكتب لي الاطلاع على هذا الكتاب . وليس لابي حيان من المطبوع سوى رسالة الصديق والصداقة وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القضاء عن الحج الشرعي ، ورسالة في صلات الفقهاء في المناظرة ؛ الرسالة البغدادية ، الرسالة في أخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية ايضاً ، الرسالة في الحنين الى الاوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة .

وكتبُ ابي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات وتقريع وتقريظ ونقد ولمز ووعظ وإرشاد وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلوم المختلفة ، وبلوغه درجة عالية في الفهم أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين واتى فيها بصورة صحيحة من صور العلم والأدب في ايامه . وسنعرض هنا لبعض تآليفه ونسوق رواميز منها مما كتبه التوحيدي مباشرةً او مما نقل عنها في الامهات نعرضها لنتبين روح صاحبها من أقواله ونتم لنا أمنيتنا في الوقوف ما أمكن على حياة هذا العظيم ، الذي تنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون ، وما مثله بالذي يكون نكرة . ذلك لانه قال الحقّ ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعريّ .

تصوف التوحيدي وفلسفته

كان التوحيدي على ما يظهر من كلامه ، من اهل الباطن اي الصوفية ، ومن اهل الظاهر اي الدينيين الحكماء ، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبي والتُّستُري والجنيد والسري السقطي والرقي وبشر الحافي وابراهيم بن أدهم وابن يسار وغيرهم من النساك اوالصوفية ، ومذهب السجستاني والزَّنجاني والمهرجاني والصَّيْمَري والمقدسي والمجتبى وابن زُرعة وابن سوار وابن رِفاعة في الحكمة . وكان الصحابة والتابعون نساكاً في الصدر الاول ، زاهدين بالطبع في زخارف الدنيا ، ولم يكد ينتصف القرن الثاني حتى هجمت الحضارة فنشأ التصوف ، وصار طريقة يقبل عليها المتزهدون ، يعالجون بها كلب المتكالبين على الدنيا ، واول من سمي بالصوفي في اهل السنة ابوهاشم الصوفي المتوفى سنة ١٥٠ . وسلك الصوفية طريق تصفية النفس بالرياضة ، والعزوف عن بهارج العالم ، وعرّفوا علمهم بانه العمل لما فيه ترقية اهل الكمال من النوع الانساني في مدارج سعادتهم ، والامور العارضة لهم في درجاتهم ، بقدر الطاقة البشرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقيل ان اصل اسمهم الصوفية يرجع الى آل صوفان خدام الكعبة المتنسكون المتصوفون ، والارجح انهم نسبوا الى الصوف لباس العباء واهل الصوامع ، لان هؤلاء القوم خلعوا ثياب الخز والحرير ، ولبسوا هذه المسوح على عادة اهل النسك في اهل الاديان الاخرى ولهم مراسمهم ومصطلحاتهم .

اما الفلسفة فحدها كما قال الفارابي : « العلم بالموجودات بما هي موجودة » او علم حقائق الاشياء والعمل بما هو أصلح . وكانوا في ذاك العصر يقسمون الفلسفة قسمين احدهما الجزء النظري والآخر الجزء العملي ، وينقسم الجزء النظري الى ثلاثة أقسام وذلك ان منه ما يفحص فيه عن الاشياء التي لها عنصر ومادة و يسمي علم الطبيعة ، ومنه ما الفحص فيه عما هو خارج عن العنصر والمادة و يسمي علم الامور الالهية ، ومنه ما ليس الفحص فيه عن اشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات وما اشبه ذلك ، ويسمى العلم التعليمي والرياضي ، وكأنه متوسط بين العلم الاعلى وهو الالهي ، وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي . واما الفلسفة العملية فهي ثلاثة أقسام احدها تدبير الرجل نفسه او واحداً خاصاً و يسمى علم الأخلاق ، والقسم الثاني تدبير الخاصة و يسمى تدبير المنزل ، والقسم الثالث تدبير العامة وهو السياسة المدنية والامة والملك . وكانوا يدمجون في العلم الطبيعي الطب والآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وصناعة الكيمياء .

وكان التوحيدي صوفياً فيلسوفاً بهذه الشروط ، شهدت له كتبه بانه متصوف ، وشهدت له بانه فيلسوف ، فجمع من ثم بين العلوم المادية والعلوم المعادية ، ووفى كل علم قسطه من النظر ، فكان فيه الصدر المقدم . وليست له طريقة خاصة في التصوف ولا مذهب معروف في الفلسفة ، بل انه أحاط بجميع الطرق ، وحنى عليها و بسط لاهلها جناح الرحمة ، وطابت نفسه بعشرة اهل ثقتها والأخذ عنهم . وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من المباحثات والمناقشات المشربة بروح الحرية الممولة بعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت اهل مذهب خاص من مذاهب العلم الديني او الفلسفي ، وبدا كل ذلك في مظهر غريب باسلوب انشائه . وإنا على مثل اليقين ان غفلة المؤرخين او تغافلهم عن الترجمة للتوحيدي ، مع هذه البسطة في العلم الواسع ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والبيان الرائع ، كانت بسبب اخلاقه فغمطوه بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستر بحجاب ، والعقل لا تخفى عظمته على ذوي الالباب مهما تبدلت الاحوال ودرجت الأجيال والأحقاب .

اخلاقه وحالاته

ظهر ان ابا حيان كان مقتراً عليه في الرزق ، وانه ربما كان يعيش بالوراقة او النسخ في بغداد مدة طويلة — والوراقة في القديم كالطباعة في العصر الحديث من موارد العيش لكنها صناعة شاقة وان كانت خير معوان لاخراج العلماء والادباء — ولم يل التوحيدي امراً من امور الدولة ، ويستحيل على من كان في مثل علمه واستغراقه في دفاتره ، ان يسف الى تقلد الأعمال الدينية والادارية والسياسية ، او يجد في وقته متسعاً للقيام بها ، فاذا لم تكن له إدرارات من السلطان او الخليفة يعيش بها يبرّح به العَوَز والإملاق . وهكذا كان شأن بعض معاصريه مثل ابي بكر القوَمسي الفيلسوف الذي وصفه ابو حيان بانه كان بحراً عجّاجاً ، وسراجاً وهّاجاً ، وكان قرين التوحيدي في الضرّ والفاقة ومقاساة الشدة ، ومن الإضافة بمنزلة عظيمة ، وهو الذي قال للتوحيدي ذات يوم : ما ظننت ان الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ مني : ان قصدت دَجلة لاغتسل منها نضب مأؤها ، وان خرجت الى القفار لاتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس . فالتوحيدي لم توظف له وظيفة ولا أُجري عليه رزق ، فمن اين كان يرتزق ؟ وهو يرى جنون الدهر بابنائه ، ويشهد المتوسطين في العلم والعقل بل بعض النَوَكى ينهال عليهم الرزق اي انهيال وتؤاتيهم ضروب السعادة ولما تستعد لها انفسهم .

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن احاظ قسمت وجدود

نظر ذات اليمين وذات الشمال يلوب على من يضمه الى جملته ، ويكشف عنه ضره وبؤسه ، والناس ابناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أُمه كما قال علي (كرم الله وجهه) ولما ترامى الى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بويه في الشرق ، وكانا يُفضلان على أعلام العلم في مدينة دار السلام ويبرّانهم بهباتهم الحين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعد الآخر ، ووصلت عطاياهما الى شيخيّ التوحيدي ابي سليمان المنطقي وابي سعيد السيرافي — سمت نفس ابي حيان الى ان يقصد ذينك الوزيرين وانقطع اليهما ، وقدم بين يدي نجواه مدحهما اولاً ، الا انه لم ينل منهما رغبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا أعطاه راحلة ولا زاداً ، واخفق في قصر الصاحبين مع انهما كانا مع الوزير المهلبي من اكبر حماة الأدب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان في حلب . وربما كان التوحيدي استطال عليهما ، وفيهما عزة السلطان وأبهة الفرس فازدرياه فشق عليه الامر ، وهجاهما في كتاب اسماه « مثالب لوزيرين » أورد فيه حكايات في ثلبهما ، ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم ، وذكر وقائعه معهما ، قال انه فارق باب الصاحب سنة ٣٧٠ وقد نال منه هذا الحرمان الذي قصده به ، واحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً ، ومن جملة ما نفّره من الصاحب ان هذا قدم اليه رسالة في ثلاثين مجلدة على ان ينسخها له فقال : نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد ، فأخذ الصاحب في نفسه عليه .

وقد عرفنا شيئاً من أخلاق التوحيدي في هذا الكتاب ، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين ، وأحبابهما كثار في الامصار ، فأعرض الناس عنه وأوقعوا فيه وأسقطوه من دواوينهم . وعجيب ان يغضب الناس لهضم حق المهجوّين ولا يغتاظون لحق الهاجين ، وقلما يحفلون بالسبب الذي ألجأ هؤلاء الى الهجاء . وقيل ان الصاحب بن عباد اتهم التوحيدي بالزندقة ففر منه وطلبه الوزير المهلبي ليقتله ففر الى ديار بكر وفي رواية انه مات في الاستتار . ولكن التوحيدي اذا فاته أفضال الوزيرين الصاحبين ، فقد لقي اكراماً من الوزير صمصام الدولة ابن سعدان وعبد الله ابن عارض الشيرازي ، ولابن سعدان ألّف كتاب الصديق والصداقة وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وللداجي بشيراز ألّف كتاب المحاضرات . ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيديّ عن اهداء كتبه كلها الى بعض عظماء عصره ، وكانت طريقة اهداء المؤلفين مصنفاتهم لامير او عظيم من الشائع المعروف وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف باسماء معاصريهم والارتزاق بعطاياهم وهداياهم .

قضت الفاقة على التوحيدي ان يتكفف بعض الامراء ، وهو عارف بان استجداءهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ضرب من ضروب المذلة الفادحة ، وكتابه الى ابن العميد نموذج من هذا التنزل بل التبذل ، ولكن العجز غالب لانه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه . وقال انه تصفح الناس فوجدهم احد رجلين رجل ان نطق نطق عن غيظ ودمنة وان سكت سكت عن ضغن وإحنة ، ورجل ان بذل كدّر بامتنانه بذله ، وان منع حسن باقباله بخله . ولقد دعا ، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم ، و بان له نبوءُ الدهر به ، وضياع سعيه ، وخيبة أمله ، في كل ما ارتجاه لمم او مهم ، او حادثة او نائبة ، دعا بما دعا به بعض النساك فقال : « اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تذلها بالإقتار ، فنسترزق اهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلي بحمد من اعطى ، وذم من منع ، وانت من دونهم ولي الإعطاء ، وبيدك خزائن الارض والسماء » .

واذا أنصفنا اباحيان فلناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتهما وجسم سيئاتهما ، واي رجل بريءٌ من عيب او عيوب ، مما ساقه اليه ضعف في نفسه ، او خيبة في أمله ، او مساس في عاطفته ، اواعتداد برأيه . فلانذهب مع القائلين في الحكم عليه بالزندقة اللهم اذا وقفنا في الحكم عليه عند حدود أقواله ، وفيها شاهد عدل على توحيده ، وبعده عن الالحاد الذي قُرّف به . على ان معظم من ذكروه ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الادباء قالوا انه كان يتأله اي يتنسك و يتعبّد ، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته . ودعوى ابن الجوزي في ان زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندي وابو حيان وابو العلاء المعري ، وانه كان اشدهما : صرّحا وهو جمجم ، من الكلام الذي يلقى على عواهنه ، اخذه على ما يظهر بدون رو ية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ولا تحليل ، وكذلك ما قيل من ان الصاحب ابن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشر بعة وقوله في التعطيل وما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقتله ففرّ ، كلام فيه نظر ايضاً [1] على ان كثيرين

(١) في المعلمة الاسلامية ترجمة للتوحيدي بقلم الاستاذ مرجليوث الانكليزي جاء فيها ان الوزير المهلبي نفى اباحيان لما صرّح به من الإلحاد في كتبه التي ضاعت . وذكر له المترجم السيد مرجليوث كتاب التذكرة التوحيدية و كتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال انه ليس من الثابت ان هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيدي التي ذكرها ياقوت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من المتصوفة شطحوا اكثر من شطحات ابن الراوندي والتوحيدي والمعري فلم يُتهموا بشيء ولا قدح الناس في دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يمسسهم احد بسوء ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم . ولطالما وجهت تهمة الزندقة الى كثير ممن توسعوا في علم الكلام او العلم الالهي ، اوعلوم الاوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي ممن استعملوا العقل ولم يجمدوا على التقليد ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطنعه رجل مات او رجال ماتوا ، فوقروا في الصدور وعلت منزلتهم بين الناس ، وكان الميت أفضل عندهم من الحيّ ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة . والارجح انه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي ، والطاعنون إما حسدة سافهم لؤم الغريزة الى النيل من عظيم بَذّهم واربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، او انهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول ان يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الالهية والدينية والاجتماعية .

وقال فيه بعض واصفيه انه قليل الرضى عند الاساءة عليه والاحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، يشتكي صَرف زمانه ، و يبكي في تضاعيفه على حرمانه . وقد لامه أستاذه السيرافيّ يوماً وهو ينقل ذم أعرابي — بقوله « تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الاستاذ ، شغل كل انسان بما هو مبتلىً به مدفوع اليه » وهذا الخلق في النيل من الناس لا سبيل الى تبرئة ابي حيان منه ، لانه مما أجمعت الآراء على انه كان فيه مستأصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بني آدم . و يوشك صاحب هذا المشرب ان يعاديَ اكثر من يعاصرونه ، هذا وهم دونه في صوب العقل وذوب الفضل . و « اذا أقبلت الدنيا على احد أعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » .

ان الرجل الذي يخوض غمار المباحث التي خاض التوحيدي عُبابها ، وخرج منها ناصع الجبين والحجة ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من افراد الدنيا بذكائه ونبوغه ، يستحيل ان ينقيد بقيود أفكار غيره يصدر اذا صدروا ، و يرد اذا وردوا ، يقلدهم في كل ما قرروا او قُرّر لهم ، و يتابعهم عموا اوضلوا ، أبصروا ام اهتدوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و « الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم وعلى كل داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به » . وفي تاريخ البشر عدد ليس بقليل من نوابغ الارض كان نصيبهم نصيب ابي حيان من الناس والمجتمع : قضوا ايامهم في ضيق من معاشهم، وضيق من عقول اهل محيطهم ، وضيق من عبث المناظرين والمتعالمين ، وسيطرة المستبدين والجائرين .

شعره وتفننه

تُرى هل كان التوحيدي يسمع الموسيقى والغناء ، ويجلس الى ارباب الدعابة والهزل ولو في الاحايين ، ويخلع ثوب الجد والوقار ساعة من ليل او نهار ، وبغداد في ايامه علقت الطرب ، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات الى أسمى الرتب ، وخرج الادب فيها عن حد النظر والخيال ، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب وفؤاد مضطرب ، ووصف واقعة حال ، بعيدة عن الخيال . واكبر الظن ان التوحيدي لم يكن على شيء من هذا اللهم الا اذا كان في صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، أجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التي انتهت الينا من شعره وهي في غزل رقيق ، صدر عن ذوق تام في الغرام ، فكانت أشبه بكلام من ابتسم للحياة والايام ، فأخذ ينظر اليها نظر المتفائل ، على حين كانت اكثر نظرات التوحيدي متشائمة متألمة ، هذا اذا لم يؤول له مأول بان هذا اللسان كان في موضوع من موضوعات اهل الباطن ، كما يفسر بعض المتصوفة كثيراً من غزل من أثروا شعرهم او نثرهم فيدعون انه في العزة الالهية او في المقامات المطهرة . اما ابيات التوحيدي فهذه :

يا صاحبيَّ دعا الملامة واقصرا ... ترك الهوى يا صاحبي خسارة
كم لمت قلبي كي يُفيق فقال لي ... لجَّت [1] يمين ما لها كفارة
أنا لا أفيق ولا أفتر لحظةً ... ان انت لم تعشق فأنت حجارة
الحب اول ما يكون بنظرة ... وكذا الحريق بدأوه بشرارة
يا من احب ولا أسمي باسمها ... إياك أعني فاسمعي يا جارة

(١) لجَّ في اليمين لم يكفرها مدعياً صدقه فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شيء من تشاؤمه

كان ابو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها ، وضنّا بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته ، وكتب اليه القاضي ابو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه ، ويعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه ، فكتب اليه ابو حيان يعتذر من ذلك : « حرسك الله ايها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك ، وأعاذني من مكافأتك على ذلك ، وأجارنا جميعاً مما يسود وجه عهد ان رعيناه كنا مستأنسين به ، وان أهملناه كنا مستوحشين من أجله ، وادام الله نعمته عندك ، وجعلني على الحالات كلها فداك » .

« وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع ، على ظمأ بَرْح [1] مني اليه ، وشكرت الله تعالى على النعمة به عليّ ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت به بعد ذكر الشوق اليّ والصبابة نحوي ما نال قلبك ، والتهب في صدرك ، من الخبر الذي نميَ اليك ، فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء ، فعجبت من إنزواء وجه العذر عنك في ذلك ، كأنك لم تقرأ قوله جل وعزّ (كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) وكأنك لم تأبه [2] لقوله تعالى (كل من عليها فانٍ) .

« وكأنك لم تعلم انه لا ثبات لشيء من الدنيا ، وان كان شريف الجوهر ، كريم العنصر ، مادام مقلباً بيد الليل والنهار ، معروضاً على حوادث الدهر وتعاور الايام . ثم اني اقول ان كان أيدك الله ، قد أنقب خُفك [3] ما سمعت ، فقد أدمى أَظلّي ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه اياماً ولياليَ ، وحتى اوحي اليّ في المنام بما بعث راقد العزم ، واجد فاتر النية ، وأحيا ميت الرأي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع ، وتربع في الخاطر ،

(١) شديد . (٢) أَبَه له وبه كمنع وفرح فطن اونسيه ثم تفطن له . (٣) اصل المثل إن يَدْمَ أظلُّك فقد نقِب خفي . الأظلّ ما تحت منسم البعير ، والخف واحد الاخفاف وهي قوائمه . يضرب به المشكو اليه للشاكي اي انا منه في مثل ما تشكوه (امثال الميداني) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين في مقدمته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك ان طالبت ، اوالعذر ان استوضحت ، لتثق بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي . ان العلم « حاطك الله » يراد للعمل كما ان العمل يراد للنجاة ، فاذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالِم ، وانا اعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً ، وصار في رقبة صاحبه غُلا ، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار .

لما ذا كره كتبه وما اورثته

« ثم اعلم علمك الله الخير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته فاما ما كان سراً فلم اجد له من يتحلى بحقيقته راغباً واما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً على اني جمعت اكثرها للناس ولطلب المثالة[1] منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم فحرمت ذلك كله ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه بامري وكرهت مع هذا وغيره ان تكون حجة عليّ لا لي .

ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه اني فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً وصاحباً قريباً وتابعاً اديباً ورئيساً منيباً فشقّ عليّ ان ادعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضيَ اذا نظروا فيها ويشمتون بسهوي وغلطي اذا تصفحوها ويتراؤون نقصي وعيبي من اجلها . فان قلتَ ولِمَ تسيء بهم بسوء الظن وتقرّع جماعتهم بهذا العيب فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات وكيف أتركها لاناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من احدهم وداد ولا ظهر لي من انسان منهم حِفاظ . ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة الى اكل الخَضِر[2] في الصحراء والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة والى بيع الدّين والمروءة والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق والى مالايحسن

(١) الفضل يقال هو من ذوي مثالتهم . (٢) الخضر ككتف البقلة الخضراء كالخضرة كفرحة وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً وهي تملأ فم البعير (التاج) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالحر ان يرسمه بالقلم و يطرح في قلب صاحبه الألم واحوال الزمان بادية لعينك بارزة بين مسائك وصباحك وليس ماقلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك وشدة تتبعك وتفرغك وما كان يجب ان نرتاب في صواب ما فعلته واتيته بما قدمته ووصفته وبما أمسكت عنه وطويته اما هرباً من التطويل واما خوفاً من القال والقيل .

شكوى الهرم

« وبعد فقد أصبحت هامة [1] اليوم او غد فاني في عشر التسعين وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة او رجاء لحال جديدة الست من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تفوقت درّات الصّبا في ظلاله الى ان أتاني بالفطام مشيب

وهذا البيت للورد الجعدي وتمامه يضيق عنه هذا المكان .

« والله ياسيدي لو لم اتعظ الا بمن فقدته من الاخوان والاخدان في هذا الصقع من الغرباء والادباء والاحباء لكفى فكيف بمن كانت العين تقرّ بهم والنفس تستنير بقربهم فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وماوالى هذه المواضع وتواتر اليّ نعيّهم واشتدت الواعية [2] بهم فهل انا الا من عنصرهم وهل ليّ محيد عن مصيرهم أسأل الله تعالى رب العالمين ان يجعل اعترافي بما اعرفه موصولاً بنزوعي عما اقترفه انه قريب مجيد .

بمن اقتدى في احراق كتبه والحامل له عليه

« وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم و يؤخذ بهديهم و يمشي الى نارهم . منهم ابو عمرو بن العلاء وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف دفن كتبه في بطن الارض فلم يوجد لها اثر . وهذا داود الطائي وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادةً و يقال له تاج الامة طرح كتبه

(١) يقال هو هامة اليوم او غد اي مشف على الموت . (٢) الصراخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في البحر وقال يناجيها : نعم الدليل كنتِ والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول . وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه الى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابه فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم في الاول ثم كاد يُضلنا في الثاني فهجرناه لوجه من وصلناه وكرهناه من اجل من أردناه . وهذا ابو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها [1] بالنار ثم قال : والله ما أحرقتكِ حتى كدت أحترق بك . وهذا سفيان الثوري مزّق الف جزء وطرحها في الريح وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم اكتب حرفاً . وهذا شيخنا ابو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل فاذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

« وما ذا اقول وسامعي يصدق ان زماناً احوج مثلي الى ما بلغك لزمان تدمع له العين حزناً وأسى و ينقطع عليه القلب غيظاً وجوىً وضنى وشجى وما يصنع بما كان وحدث و بان ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل والله تعالى شاف كاف وان احتجت اليه للناس فني الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس الى ان تفنى الانفاس بعد الانفاس وذلك من فضل الله علينا ولكن اكثر الناس لا يعلمون . فلم تعني عيني ايدك الله بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح و بالسواد والبياض وهل ادرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرِج [2] وهوى بصاحبه الى الهبوط وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالاقتصاد في السعي والا الرضى باليسور والا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم فأين يذهب بنا ؟ وعلى اي باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب الا كجامع الفضة والذهب وهل المنهوم بها الا كالحريص الجشع عليها وهل المغرم بحبها الا كمكاثرها ؟ هيهات الرحيل والله قريب والثواء قليل والمضجع مقض والمُقام بمض والطريق مخوف والمعين ضعيف والاغترار غالب والله من وراء هذا كله

(١) سجر التنور أوقده . (٢) الزِّبرج بالكسر الزينة بالوشي او الجوهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

طالب . نسأل الله تعالى رحمة يظللنا جناحها و يسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد ان حصل تحت قدرته .

يشكو صحته وشيخوخته وعوزه

« ثم اني أيدك الله ماأردت ان أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً وفي محبتك على قربك ونأيك (مقيماً) مع ما أجده من انكسار النشاط وانطواء البساط لتعاور العلل عليّ وتخاذل الاعضاء مني فقد كلّ البصر وانعقد اللسان وجمُد الخاطر وذهب البيان وملك الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس ولكني حرست منك ماأضعته مني ووفيت لك بما لم تف به لي و يعز عليّ ان يكون لي الفضل عليك وأحرز المزية دونك وماحداني على مكاتبتك الا ماأتمثله من تشوقك اليّ وتحرقك علي وان الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك وأعظم تعجبك وحشد عليك جزعك والاول يقول :

وقد يجزع المرء الجليد و يبتلي عزيمة رأي المرء نائبة الدهر
تعاوره الايام فيما ينوبه فيقوى على امر و يضعف عن امر

على اني لو علمت في اي حال غلب عليّ ما فعلته وعند اي مرض وعلى اية عسرة وفاقة لعرفت من عذري أضعاف ما ابديته واحتججت لي باكثر ما نشرته وطويته واذا أنعمت النظر تيقنت ان لله جلّ وعزّ في خلقه أحكاماً ، لا يغارّ عليها ولا يغالب فيها لانه لا يبلغ كنهها ولا ينال غيبها (ظلمتها) ولا يعرف قابها (مسافتها) ولا يقرع بابها وهو تعالى أملك لنواصينا وأطلع على ادانينا واقاصينا له الخلق والامر وبيده الكسر والجبر وعلينا الصمت والصبر الى ان يوارينا اللحد والقبر والسلام .

حاشية له

« ان سرّك جعلني الله فداك ان تواصلني بخبرك وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل فاني لا ادع جوابك الى ان يقضي الله تعالى تلاقيا يسر النفس و يذكر حديثنا بالامس او بفراق نصير به الى الرمس ونفقد معه رؤية هذه الشمس والسلام عليك خاصاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك وعلى جميع اخوانك عاماً بحق الوفاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذي يجب عليّ وعليك والسلام . وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة اربعمائة اه .

يعتذر ببلاغته عن فعلته

هذا هو كتاب التوحيدي كشف به الغطاء عن محيا حقائق عصره وألمّ فيه اي إلمام بما حداه على تعفية اثره لما لقي من الانكار وناله من اهل جيله وقبيله فهُجّن بما هُجّن وأزعج بما أزعج ولولا ان السوء بداء غلبت عليه باقراره واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه وزين له إتيان ما اتى على حين كانت ولا تزال بنات الافكار اغلى من كل عقار ونضار لما أقيمت له معذرة ولا أسبل على ذنبه ستر المغفرة . وبالسوء بداء قد يهلك المرء اعزّ حبيب على قلبه حتى اذا ثاب اليه عقله ندم على فعلته بل بالمرّة الصفراء قد يقتل نفسه والنفس أعزُّ الاعلاق على الاطلاق . والتوحيدي مع هذا لم يأت بدعاً فريّاً ولعمله اشباه ونظائر في كل عصر ومصر . بيد ان الزمن الذي قلبه كل مقلب وغيره في اعطاف النعم يتقلب واخرجه من جلده ونبا به عن طوره بما رآه من خُبث وخَبَث وعَمَت وعَبَث — لم يرض ان يستلب جميع جواهره وعقوده ليستمتع بذرو من درره اهل الاجيال الحاضرة على نحو ما استمتع بها ابناء الأعصر الغابرة فقضى له من قبل المأتم الذي عقده لاحراق كتبه ان يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره و يتنافسوا في نسخها واقتنائها فبقيت بصنيعهم هذه البقية الباقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكراه على كرور الاعصار وطارت كل مطار في الاقطار والامصار .

وان اعظم ما ينتقد عليه في هذه الرسالة قوله انه جمع اكثر كتبه للناس ولطلب الفضل منهم وعقد لرياسة بينهم ومن الجاه عندهم . وقوله هذا ينافي في الحق هدي العلماء فان العلم يراد لذاته وتأليف الكتب يقصد بها نفع الناس ونشر فكر وبث حقيقة ثم يتوقع منها مأرب آخر هذا اذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها فان هذا التصريح مما يعاب عليه وما نرى هذه الافكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف .

على اننا رأينا ابا حيان في بعض احواله ومواقفه يقول غير هذا رأيناه يتول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد رأى في جامع الرصافة المعافا بن زكريا وقد نام مستدبر الشمس في يوم شات وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم مع غزارة علمه واتساع ادبه وفضله المشهور ومعرفته بصنوف العلم سيما علم الاثر والاخبار وسير العرب وايامها فقال له : مهلاً ايها الشيخ وصبراً فانك بعين الله ومرأى منه ومسمع وما جمع الله لاحد شرف العلم وعز المال فقال : ما لا بد منه من الدنيا فليس منه بد ثم قال :

يا محنة الدهر كفي ... ان لم تكفي نخفي
قد آن ان ترحمينا ... من طول هذا التشفي
طلبت جداً لنفسي ... فقيل لي قد تُوفي
فلا علومي تجدي ... ولا صناعة كفي
ثور ينال الثريا ... وعالم متخفي

« للكلام صلة »

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

علائق الحبشة بالبلاد العربية

« في الجاهلية وفي الاسلام »

— ٣ —

(ذكر انكسار الاحباش وخروجهم من اليمن ورجوع الحكم الى العرب تحت سيادة الفرس) :— سيف بن ذي يزن ويكنى بابي مرة من سلالة التبابعة ملوك حمير وآخرهم عهداً وهو الذي سعى في إخراج الحبشة من بلاد اليمن . وذلك ان ابرهة الاشرم لما تولى اليمن انتزع ريحانة زوجة ذي يزن وكان سيف صغيراً فترعرع في حجر ابرهة وهو يظنه اباه وكان ابوه قد أمّ كسرى انو شروان يستصرخه على الحبشة وان يكون ملك اليمن له فوعده النصرة وطال تلبثه عنده حتى تصرم حبل اجله .

فلما شبّ سيف عنّ لاحد ابناء ابرهة ان ينتقص شأنه فعيره وهجّن اباه فهرع الى أمه وسألها عن امر ابيه فأعلمته اليقين فأقام حيناً الى ان مات ابرهة وابنه يكسوم وقام مسروق اخو يكسوم . فخرج سيف حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا اليه امر الحبشة وسأله ان يخرجهم و يبعث من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكّه قيصر . فخرج حتى اتى النعمان بن المنذر وكان عامل كسرى على الحيرة وما يليها من ارض العراق فشكا اليه امر الحبشة فقال له النعمان ان لي على كسرى وفادة في كل عام فأقم حتى يكون ذلك ففعل . ثم خرج معه فأدخله النعمان على كسرى فطأطأ رأسه و برك على نحو العادة المرعية في بلاط فارس وقال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الاغربة . فقال له كسرى : اي الاغربة الحبشة ام السند . فقال بل الحبشة فجئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك . قال بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم اكن لأورّط جيشاً من فارس بارض العرب . ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وكساه كسوة حسنة . فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر تلك الدراهم للناس فبلغ ذلك الملك فقال ان لهذا لشأناً ثم بعث اليه وقال له عمدتَ الى حباء الملك تنثره للناس . فقال سيف وما أصنع بهذا ما جبال ارضي التي جئت أقدمها للملك الا ذهب وفضة . فجمع كسرى مرازبته (والمرازبة جمع مرزبان وهم الوزراء وعظماء السلطنة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فارس) وقال لهم ما ذا ترون في امر هذا الرجل . فقال قائل ايها الملك ان في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل فلو انك تبعثهم معه فان يهلكوا كان ذلك الذي أردتَ بهم وان ظفروا كان ملكاً أردته . فبعث كسرى من كان في سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم (اي جعل عليهم عاملاً يعني قائداً) رجلاً منهم يقال له وَهْرَز . ولما وصلوا الى ساحل عدن جمع سيف الى وهرز من استطاع من قومه . وقد قُتل مسروق بن ابرهة الحبشي في هذه المعركة ودخل وهرز مع سيف الى صنعاء .

قال ابن اسحق : عن هذه المعركة عنى سطيح الكاهن بقوله « يليه إرمُ ذي يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك احداً منهم باليمن » . فلما قتل مسروق وانهزم الحبش كُتب الى كسرى فامر ان يملك سيف بن ذي يزن وفرض عليه خراجاً وجزية في كل عام . وهكذا عاد ملك اليمن الى العرب ولكن بقيت السيادة العملية للفرس حتى ظهر الاسلام فأجهز عليهم وأدال دولتهم .

(ذكر هجرة الصحابة الى ارض الحبشة) . — حدث عبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحق قال : لما رأى رسول الله (ص) مايصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية لمكانه من الله ومن ابن عمه ابي طالب وانه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكاً لا يُظلَم عنده احد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) الى ارض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً الى الله بدينهم فكانت هذه اول هجرة في الاسلام وكان المهاجرون من المسلمين الذين لحقوا بارض الحبشة سوى ابنائهم ونسائهم ثلاثة وثمانين رجلاً . فأمنوا بارض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي وعبدوا الله لا يخافون في ذلك احداً وقد احسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به . (وهنا عدّدهم المؤلف فرداً فرداً باسمائهم) .

قال ابن اسحق فلما رأت قريش ان أصحاب رسول الله (ص) قد أمنوا واطمأنوا بارض الحبشة وانهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم ان يبعثوا فيهم رجلين من قريش جليدين الى النجاشي فيردُّهم عليهم ليفتنوهم في دينهم و يخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وامنوا فيها . فبعثوا عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجمعوا لها هدايا للنجاشي ولبطارقته . (والبطارقة جمع بطريق وهم عند الروم والحبشة كالأقيال عند العرب والمرازبة عند الفرس من عظماء المملكة وحكام الاقطاعات . والبطريق غير البطرك فالاول لقب لذي منصب سياسي ويدعوه الافرنسيون (patrice) او (Patrique) والآخر لقب لذي منصب ديني وهي اختصار لكلمة بطريرك اليونانية) .

قال ابن اسحق في عنعنة من حديث لام سلمة بنت ابي أمية ابن المغيرة زوج النبي (ص) قال قالت لما نزلنا ارض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم ان يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين وان يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً الا اهدوا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبدالله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص فأمروهما بامرهم وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلما النجاشي فيهم ثم قدما الى النجاشي هداياه ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم قالت فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار . فلم يبق من بطارقته بطريق الا دفعا اليه هديته قبل ان يكلما النجاشي وقالا لكل بطريق منهم انه قد ضوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم . وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردوهم اليهم فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بان يسلمهم الينا ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما نعم . ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشي فقبلها منهما . ثم كلماه فقالا له عش ايها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت . وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم اعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . قالت ولم يكن شيء أبغض الى عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع النجاشي كلامهم . قالت فقال بطارقته حوله صدقا ايها الملك قومهم اعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما ليردهم الى بلادهم وقومهم . قالت فغضب النجاشي ثم قال لا والله لا أسلم اليهما قوماً جاورني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان في امرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهم واحسنت جوارهم ما جاوروني . قالت ثم ارسل الى اصحاب رسول الله (ص) فدعاهم . فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل اذا جئتموه . قالوا نقول والله ماعلمنا وما امرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا وقد دعا النجاشي اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين احد من هذه الملل . قالت فكان الذي كلمه جعفر بن ابي طالب فقال : عش ايها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وامرنا ن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً . وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما احل لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى وان نستحل ما كنا نستحله من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت فقال له النجاشي هل معك مما جاء عن الله من شيء . قالت فقال له جعفر نعم . فقال له النجاشي فاقرأه علي . فقرأ عليه صدراً من كهيعص . قالت فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم . ثم قال النجاشي ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله ما أسلمهم اليكما ولا يكادون . قالت فلما خرجا من عنده قال عمرو بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العاص والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن ربيعة وكان اتقى الرجلين لا تفعل فان لهم أرحاماً وان كانوا قد خالفونا . قال والله لأُخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد . قالت ثم غدا عليه الغد فقال ايها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل اليهم وسلهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم ليسألهم عنه . قالت ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى بن مريم اذا سألكم عنه . قالوا نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن . فلما دخلوا عليه قال لهم ما ذا تقولون في عيسى بن مريم . فقال جعفر بن ابي طالب نقول فيه الذي جاءنا به نبينا (ص) هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشي الى الارض وقال اذهبوا فأنتم آمنون بارضي ، من سبّكم غرم . ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها . فوالله ما اخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما اطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه . فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاآ به . قالت واقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

(رجوع المهاجرين الى مكة) — ذكر سفيان بن عيينة عن الاحلج عن الشعبي ان جعفراً بن ابي طالب رضي الله عنه رجع من الحبشة وقدم على رسول الله (ص) يوم فتح خيبر .

وقال ابن اسحق ان قد بقي بارض الحبشة من اصحاب رسول الله (ص) حتى بعث فيهم رسول الله الى النجاشي عمرو بن أمية الضمري بعد فتح خيبر فحملهم في سفينتين وقدم بهم الى مكة . فكان الذين رجعوا من الحبشة الثلث فقط ومات هنالك من مات والباقون تخلفوا عن المجيء . وقد تنصر بينهم واحد فقط وهو عبيدالله بن جحش فكان اذا مرّ بالمسلمين بعد نصرانيته يتهكمهم بقوله فقحنا وصأصأتم اي ابصرنا وانتم تلتمسون البصر فجرت هذه العبارة من ذلك اليوم مثلاً .

هذا حديث اول هجرة للصحابة الى الحبشة . وقد هاجروا اليها هجرة ثانية وذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقبل الى مكة وهو على شركه قبل اسلامه فلقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المسلمون منه بلاءً واذىً وشدة فهمّ بعضهم وهاجروا الى الحبشة لينضموا الى من بقي مقيماً في تلك الارجاء . وكان ذلك استناداً الى ما روي في مكة عن اسلام النجاشي .

(اسلام النجاشي اصمحة) . — كان اسم النجاشي ايام هجرة المسلمين الى الحبشة اصمحة والعرب يقولون الاصحم بن ابجر . قالوا انه أسلم سراً ولكن رواية اسلامه لاذكر لها في تاريخ ملوك الحبش . وقد رواها ابن اسحق فيما يلي قال :

بعث رسول الله (ص) ابن عمه جعفراً بكتاب الى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة . سلم انت فاني احمد الله اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسول الله . وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين فاذا جاءك فاقرِهم ودع التجبر فاني ادعوك وجنودك الى الله . فقد بلّغتُ ونصحت فاقبلوا نصحي . والسلام على من اتبع الهدى » .

فكتب النجاشي الى رسول الله (ص) : « بسم الله الرحمن الرحيم . الى محمد رسول الله من النجاشي الاصحم بن ابجر . سلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا آله الا هو الذي هداني الى الاسلام . اما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من امر عيسى . فورب السماء والارض ان عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ ثُفْروقاً . انه كما قلت . وقد عرفنا ما بُعثتَ به الينا . وقد قرينا ابن عمك واصحابه . فأشهد انك رسول الله صادقاً مصدّقاً . وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثتُ اليك بابني ارها بن الاصحم بن أبجر فاني لا أملك الا نفسي . وان شئتَ ان آتيك فعلتُ يا رسول الله فاني أشهد ان ما تقول حق . والسلام عليك يا رسول الله » .

ولكن بعد ان أورد ابن اسحق هذين الرقيمين التاريخيين عاد فأوقع القارئ في ريبة من امر الردّ (اي من امر جواب النجاشي) ومن امر صحة الرواية التي أسندها اليه اذ قال : ان النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فاذ كانوا في وسط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا . كما ان تاريخ ملوك الحبش يدعو ابن اصحمة عمدة صهيون وقد ملك على الحبشة بعد موت ابيه .

وقال ايضاً المؤلف نفسه : حدثني جعفر بن محمد عن ابيه قال : اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي انك قد فارقت ديننا وخرجوا عليه . فأرسل الى جعفر واصحابه فهيأ لهم سفناً وقال اركبوا فيها وكونوا كما انتم . فان هُزمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم وان ظفرتُ فاثبتوا . ثم عمد الى كتاب فكتب فيه هو يشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله و يشهد ان عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه و كلمته ألقاها الى مريم . ثم جعله في قبائه عند المنكب الايمن[1] . وخرج الى الحبشة فقال : يا معشر الحبشة الستُ احق الناس بكم . قالوا بلى . قال فكيف رأيتم سيرتي فيكم . قالوا خير سيرة . قال فما لكم . قالوا فارقتَ ديننا وزعمت ان عيسى عبد . قال فما تقولون انتم في عيسى . قالوا نقول هو ابن الله . فقال النجاشي واضعاً يده على صدره على قبائه هو يشهد ان عيسى بن مريم ولم يزد على هذا شيئاً . فرُضوا وانصرفوا . قال ابن اسحق : ولما مات النجاشي كانوا بمكة يتحدثون باسلامه و بانه رؤي على قبره نور . وقد صلى عليه النبي صلاة الغائب .

(فتوحات المسلمين في الحبشة) .— عندما برزت العرب من شبه جزيرتهم والتأمت جموعهم بفضل الاسلام بعد ان كانوا في الجاهلية اشتاتاً بعضهم لبعض عدوّ كما ذكرنا فويق هذا . اخذوا يثيرون الحروب بقصد التوسع في الملك والتبسط في الاستعمار . قال العلامة احمد زكي باشا احد اعضاء هذا المجمع العربي في احدى محاضراته على تلامذة الجامعة المصرية « ان الحرب هي من طبيعة الانسان او هي من المصائب الضرورية كما يقول علماء العمران . واية دولة قامت قديماً او حديثاً وتوسعت في العمران بغير الحرب » اه .

وان في عداد الجيوش التي سيروها وفتحوا بها فتوحاتهم المشهورة في الشام ومصر

(١) القباء هو رداء الحبشة الوطني يُصنع من الوبر الاسود وهو يشبه البُرنس عند اهل تونس ومُرّاكُش وجزائر الغرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والعراق وإفريقية حتى وفي بعض انحاء اوربا سرية صوبوها الى جارتهم الحبشة ففتحت اولاً بلاد الزيلع ونزلت ارض جَبَرَةَ التي تعرف اليوم بجَبَرت وهذه البلاد هي صحراوية من اعمال الحبشة على ساحل البحر الاحمر . وانتشر منذ ذلك العهد الاسلام في جميع البلاد الساحلية السفلي التي تحيط بالحبشة الداخلية العليا وهي المعبر عنها في التواريخ العربية بالطراز الاسلامي لانها على جانب البحر كالطراز له ولا يزال منتشراً الى اليوم. والامراء الذين تولوها هم من بني عبد الدار ومن بني هاشم القرشيين . أشهرهم الامير عمر الذي يقال له لَشْمَع وولداه حق الدين ، وصبرالدين ، وعليّ بن صبرالدين، وسعد الدين محمد ابوالبركات ، وابوبكر بن علي ، وخوي بن منصور ، ومنصور بن سعد الدين وجمال الدين ، وحرب جوش ، واحمد بدلاي وغيرهم. وهؤلاء كانوا في غزوات مستمرة مع الاحباش على عهد النجاشيين اسحق بن داوود وأندراوس بن اسحق وحوبناي بن داوود . حتى تمكنت منهم الاحباش وأخضعتهم لسلطة الصولجان ولكنها لم تظلم المسلمين ولا فتنتهم قط عن دينهم . وقد عامل النجاشيون الامراء المسلمين الذين ناوشوهم العداء معاملة حسنة حتى انهم عادوا فولوهم واولادهم من بعدهم على المقاطعات التي كانوا يحكمون عليها . وهكذا استتب الامن وهدأت الفتن دهراً طويلاً فيما بينهم . قال ابو جعفر : وقد بعث عمر (رضه) علقمة بن مجزّز المدلجي الى الحبشة في البحر وذلك ان الحبشة كانت تطرفت طرفاً من أطراف الاسلام فأصيبوا . فخلف ان لا يبعث برجاله الى ارض الحبش .

وفي منتصف القرن السادس للميلاد قام الامام احمد امير العدل المسلمين (ويلقبه الاحباش باحمد كران اي الاعور كما لقب العرب فيما سلف ابرهة الحبشي الذي حكم اليمن بالاشرم) بفتنة كبيرة واستمال اليه الامراء المسلمين حكام المقاطعات الحبشية الساحلية واستنجدهم على النجاشي فأنجدوه وقاموا معه جميعاً بالجهاد فدخلوا قلب الحبشة العليا ودوّخوا اهلها وجنودها وفتحوا مدنها وقتلوا ودمروا حتى كاد الحبشة ان يُغلَبوا على امرهم و يزول سلطانهم فاستنجد النجاشي ملك البرتقال . وكانت البرتقال يومئذ دولة ذات عزّ وبطش وسيدة معمورات واسعات الارجاء بعيدة الانحاء . وكانت الهند ملكها واغنى مستعمراتها . فأنجده بجيش نزل الى البر في مصوّع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سنة ١٥٤١ تحت قيادة خريستوف دي كاما فكسر عساكر المسلمين في معارك كثيرة الا ان عسكره انكسر بعد ذلك وقتل القائد دي كاما في معركة مهمة . ولما نمي الخبر الى نائب ملك البرتقال في الهند وكان اخا القائد المقتول جهز نجدة أخرى وارسلها الى الحبشة فتمكنت من اصحاب الامام احمد وردتهم على اعقابهم . وقتل الامام نفسه في موقعة وايناد كا فخلفه على سرير هرر ابنه نور ولاه النجاشي نفسه على تلك المقاطعة الحبشية الاسلامية المتوسطة بين الساحل والداخل . ومن سلالة نور الامير عبد الله صاحب هرر السابق وهو حي يرزق على ما اظن . وقد حدث لهذا الامير ان قام على النجاشي منيلك فكسره النجاشي واسره في بلاطه وكانت هذه الفتنة دسيسةً من الانكليز في أواخر القرن الماضي تفهمها فيما بعد النجاشي فعفا عن اسيره الامير وعاد فولاه إمارته ورد اليه املاكه المحجوزة . واذ لم يحسن الامير بعد ذلك سياسته عزله وولى مكانه الراس مكونن من امراء الاحباش فلزم الامير عبد الله بيته بجانب المسجد الذي شاده هو من ماله . وقد تعرفت اليه في هرر وكان شيخًا هرمًا محترم الجانب منكبًا على العبادة وتقوى الله . وكانت بيني وبينه صلة الصداقة .

ومن آثار فتوحات الامام احمد في قلب الحبشة العليا اسلام مقاطعة جمّا باجمعها وسكانها من قبائل الگالاّ فلم يجبرهم النجاشي على العودة عن اسلامهم وولى عليهم اميراً مسلماً يتوارث عنه ولده الإمارة . وقدأمّ امير جمّا بحاشية كبيرة عاصمة الحبشة اديس ابابا إبان اقامتي فيها لمواجهة النجاشي فتسنى لي التعرف اليه ويدعى الامير محمداً ابا جعفر . والحبشة يقولون « دجمّا ابّا جفار » . وهو الذي زوج ابنته من النجاشي يسوع الثالث الذي أسلم إبان الحرب العالمية .

(اسلام النجاشي يسوع الثالث بن ميخائيل) . — الراس ميخائيل ابو هذا النجاشي كان اميراً مسلماً يحكم في طاعة النجاشي بلاد قبائل الوآ والمسلمين وكان اسمه السلطان محمد علي . ثار على ملكه منيلك الثاني فظفر به النجاشي واسره وولى حاكماً مسيحياً على بلاده . وكان محمد علي هذا رجلاً زكيًا فطنًا . فلما امسى اسيراً ذليلاً في قصر النجاشي ورأى في طبع منيلك حلماً ودعةً وفي سياسته ميلاً عظيماً لجمع القلوب وتأليف الوحدة الوطنية في إقطاعات مملكته . اخذ يستعطف و يتقرب من بابه ثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تنصر على يده وهكذا دأب في التحبب اليه حتى نال حظوةً لديه ولقبه بلقب رأس (وهو اكبر لقب في الحبشة يوازي لقب خديوي التركي و Vice roi الافرنجي) . وصاهره بان زوجه من ابنته البكر وأعاده عاملاً على بلاده يحكم باسمه قبائل الوآو . وقد رُزق من امرأته ابنة النجاشي ولداً ذكراً دعا اسمه يسوع . فلما نما هذا الصبي حتى بلغ السادسة او السابعة من عمره اتى به ابوه الى بلاط جده النجاشي حيث أقام مع اترابه اولاد الامراء الذين يؤلفون غلمان القصر .

« هذه العادة لا تزال متبعة الى اليوم في قصور النجاشي وأمرائه وهي قديمة العهد جداً وكانت مرعية عند ملوك اليونان والفرس والرومان وملوك اور با جمعاء في عهد الاقطاعات وبعده . وهؤلاء الغلمان يدعوهم الافرنج (les pages du Palais) .

واذ أنهك المرض منيلك في أواخر ايامه واشتد تأثيره على دماغه ولم يكن له عقب ذكر يرث الملك من بعده حتى ولا واحد من ابناء عمه وذوي قرباه من العصبيين انقسم أمراء الحبشة فيما بينهم احزاباً في امر هذه الوراثة فشدّ بعضهم أزر الملكة طهايتو (و بالعربية الشمس) لترث التاج عن زوجها وتحيز غيرهم لابنته الثانية الاميرة زوديتو (و بالعربية صاحبة التاج) (لان البنت البكر زوج الراس ميخائيل كانت قد توفيت) وهي العاهلة الحالية . ومنهم من تحزّب للامير تفري (و بالعربية هيوب) ابن الراس مكونن (و بالعربية القاضي) وعضد الراس ميخائيل ابنه الامير يسوع حفيد النجاشي الداخل في طور النزاع ولف حوله لفيف من مريديه المقرّبين . فتغلب هذا الحزب بدهائه على سائر الأحزاب وافترص يوم ضعف شديد في عقلية النجاشي فأقنعه بتسمية حفيده الامير يسوع وليًا لعهده وكان لم يفِ يوم من شتاء عام ١٩٠٩ ما طمحوا اليه فنودي بالامير يسوع بن ميخائيل وليًا لعهد السلطنة ووارثاً لتاج جده الامبراطور منيلك الثاني وقد جلس بعد وفاة جده على عرش الحبشة عام ١٩١٣ وتُوّج باسم يسوع الثالث وهو حَدثٌ لا يتجاوز السنة السادسة عشرة من عمره . فتلاعب به الدساسون وكان اول عمل حملوه عليه تسمية ابيه الراس ميخائيل قائداً عاماً لقوات الحبشة ثم قلد أهم مناصب المملكة لمريديه من الحزب الذي ينتمي اليه فكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من وراء هذا الفعل ما كان من استياء بقية الاحزاب وانتقاضهم عليه واشتعلت الحبشة بثورة يخرج شرحها عن ملاك موضوع هذه المحاضرة .

ولما هبت رياح الحرب الكونيـة واشتعلت نيرانها اغتنم الالمان فرصة الثورة الضاربة في الحبشة وعملوا على الانتفاع منها وتحويلهـا لمآربهم وكان النجاشي يسوع قد هرب ببعض رجاله الموالين الى هرر . وهنالك دهاه الالمان وأشاروا عليه بالعودة الى دين أجداده موهمينه انه بهذا يستطيع ان يجيش قبائل المسلمين في السواحل فيسترد بها عاصمته ويقهر اعداءه القائمين عليه . ولم يكن الالمان ليبطنوا في ذلك الا الاغارة بهذا الجيش على المستعمرات الافرنسية والانكليزية والايطالية القائمة على شواطئ بحر القلزم . وقد جازت حيلة الالمان السياسية على النجاشي يسوع فأذعن لهم وأسلم ودُعي محمد يسوع وبث الدعوة الى الجهاد بين الحبشة المسلمين فتبعه قوم منهم وخشي قوم سوء المغبة فلم ينجدوه . و بلغ ذلك أسقف الحبشة الانبامتاؤوس المصري الصعيدي (المتوفى حديثًا) فأفتى بخلعه . ونصح سفراء الحلفـاء للاحزاب فانضموا بعد تشتيت آرائهم وعادوا فألفوا كتلةً واحدة وطنية رصت بنيان كيانها ونادت بالاميرة صاحبة التاج ابنة النجاشي منيلك عاهلةً بالأصـالة سنة ١٩١٦ و بالامير تفري ابن الراس مكونن قيما على المُلك بالوكالة ووليًا للعهد لان العاهلة المذكورة مترملة من زوجهـا عن غير عقب .

واذ نهض النجاشي محمد يسوع بالموالين الى العاصمة ليفتحها عنوةً تشتت شمل جنده ووقع ابوه الراس ميخائيل اسيراً فانهزم عند ذلك النجاشي الى صحراء الدناكل وعزم ان يجتاز البحر الاحمر الى ساحل اليمن فلم يفلح لان اعداء أصحابه الالمان كانوا له ولهم بالمرصاد فلجأ الى مقاطعـة تكرِه حيث لحق به الامير تفري فأسره وساقه الى منفى الملوك . وبهذا انتهى امر هذا النجاشي وامر دسائس الالمان الذين استخدموه لقضـاء مآربهم فكانوا سبب شقائه .

عضو المجمع العلمي العربي

عبد الله رعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الادب في البحرين

— ٣ —

ومن اغلاط الكتابة :

(واجفـاناً (مأرقةً) دواما لها عن خاطب الغمض امتناع)

والصواب مؤرقة لان ما قبل الهمزة مضموم . ومن خواطئه اللغوية قوله :

(لم يألفوا كنف العقيق وانمـا شتوا بار باع الضمير وقيضوا)

بالضـاد المعجمة وصوابه قيظوا من القيظ اشد الصيف حراً لا من القيض وهو قشر البيضة . ومنـه قولهم مح البيض خير من القيض وقيّض تستعمل بمعنى قيض الله له الخطأ او الصواب وما اشبه ذلك من التعبير .

ومن الخطإ النحوي قوله في صدود البيض عن شعراته البيض :

(أوَ للبيض عن سناهن أوما كان (ناشٍ) عن صدهن صدود)

والصواب ناشئاً خبر كان المقدم .

ومن عيوب النسخ مسخ اجفال باجفان في بيت يصف فيه النياق :

(لهن اذا ما استرفض الآل سمته على الأين (اجفان) النعام المطرّد)

ومن مخالفة العروض والوزن الذي وقع فيه الناسخ قوله :

(لو كان في وسع جهدي ان ابثكم شوقي واشكو (اليكم) وجدي وتبريحي)

الصواب لكم . ومن أغلاطه اللغوية قوله :

(يا شوى قلبي على البعـد فهل من لقاً يعدي على ذاك ووصلي)

فهو يريد مصدر شوى اللحم شيًّا وشواءً واما الشوى فما ليس بمقتل من الانسان تقول رمى الصيد فأشواه نقيض أصماه ، ومن المجاز اعطاني من الشوى وهو رذال المال وكل ذلك شوىً ما سلم شرفي اي هو حقير ، وتعبيره يا شوى قلبي من اقوال العامة في البحرين وفي الشام ايضاً تقول الثكلى عندنا « يا شوى قلبي عليه » اي على فقيدها ولو وضعها بين قوسين يدلان على الرواية لما خطأناه . ومنها استعماله التفرّاق للفراق وهو غير صحيح ولا مستعمل لا في الشام ولا في العراق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فان من جمع الزوجين قبلك لا يعيا بألفتنا بعد التفرّاق)

اي لا يتعب بجمعنا بعد تفريقنا وهو بيت ضعيف الأسر لم يجوّد حبكه .

ومن مسخ النسخ قوله :

(وخذوا بالترات من قاتل الشعر فما الحزم ان تضاع الذحول)

والصواب الترات جمع ترة وهي الوتر اي الثار نقول : هو اطلب الناس للترات ما بين دجلة والفرات ، ولا معنى للتراث وليس هنا من يأكله اكلاً لمّا ، والذحول في آخر البيت دليل على صحة ما نقول :

ومن الأغلاط النحوية ولعله من مسخ النسخ ايضاً :

(فما اشقاك يا من لا يذقه واحظى من تعاطاه واسعد)

ويغلب الظن على المسخ ان الوزن يستقيم لو قال : يا من لم يذقه ، وكلامه على نبات الحشيشة الملعونة ، ولو نظمنا في وصفه لقلنا :

(فما اسماك يا من لم يذقه واسفلَ من تعاطاه وانكد !)

هذا ولعل في ديوان ابي البحر غير هذه الهفوات اليسيرة وهي بالنظر الى تجويداته الجمة كالحسنات يذهبن السيئات . واما الديوان من وجهة الادب الحقيقية اي الأخلاق ، فجل قصائده قيلت في المدح وفيه من المغالاة والاغراق ما لا يحمد ، خلا ما قاله في الرثاء المحمول على الوفاء ، فمن إغراقه الكاذب قوله :

(وزفرة لو ثوى اليوم الخليل بها اودى ولم يغن عنه برده فيها)

(لو سيم وبل الحيا اطفاء وقدتها لم تلفه وملياه الارض تطفيها)

(وعبرة لو دعي نوح ليسلكها بفلكه قال : بسم الله مجريها)

ومن هذه الاحالة التي يمجها العقل السليم وذوق العصر الحاضر قوله :

(أصبحت أثقلَ مني نملة فزنوا بي بعضها يرجح بكلي)

(ثم لو قد حملتني بقة ! مدة الايام لم تعي بحملي)

وفي تعي المجزومة زحاف كان له عنه مندوحة بقوله لم تتعب .

واما الرثاء فقد برز فيه اقرانه ولا سيما مراثيه في آل البيت فانها :

(ارق من دمعة شيعية ترثي عليّ بن ابي طالب)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد اشتهرت مرثيته في الامام الشهيد ابي عبدالله الحسين واسرته الطاهرة وهي التي مطلعها : (معـاهدهم بالابرقين هوامد رزقن عهاد المزن تلك المعاهدُ)

ولو قال : سقين لكان أعرب وأطرب ومنها في وصف ذلك المستبسل :

(كأني به في ثلة من رجاله كما حف بالليث الاسود اللوابد)
(اذا اعتقلوا سمر الرماح وجردوا سيوفاً اعارتها البطون الاساود)
(فليس لهـا الا الصدور مراكز وليس لها الا الرؤوس مغـامد)
(الى ان ثووا في الرمل صرعى كأنهم نخيل أمالتهن أيد عواضد)
(ولم يبق الا واحد الناس واحداً يكابد من أعدائه ما يكابد)
(يحامي وراء الطاهرات مجاهداً باهلي وبي ذاك المحامي المجاهدُ)

ومن شوائبه ومعائب جيلة الاستجداء والبذاء في الشعر ومدح ما هو خليق بالذم كمدحه الحشيشة بقصيدة طويلة تحبب التحشيش الى قلب كل سخيف العقل كالقصيدة التي نظمها جواباً لحشيشية بعض فتيان القطيف وفي قصيدة ابي البحر من فاحش البذاء ما يندى له جبين الحياء ومن استجدائه الشائن قوله يعاتب بعض العلويين الشريف ناصر القاروني مستجدياً .

(ما كنت احسب والعليـاء مولعة بخفض شأن اخي العلياء والحسبِ)
(اني أمد لا ندى العـالمين يداً يدي لاعلق ما أوتيـه من نشبِ)
(حتى سألتـك يا احنى الانام على ضعفي قويتَ ويا احنى البرية بي)
(فظلت توسعني مطلاً يضيق به صدري ويضطرني كرهاً الى العتب)

فكيف يكون اندى العالمين يداً من بوسعه مطالاً يضيق به صدره فيضطره الى العتب الى ان يقول في الجواد المطُول :

(اما الوفاء فشيء قـد سمعت به ولن تراه ولو امعنتَ في الطلب)

وانظر الى بعد همته ومبلغ عزته قائلاً :

(أصبحت منذ اليوم ضيقةً يدي فابعث اليَّ ولو بعثت بدرهم)
(انا غرس أنعمك التي لاعذر لي ان لم أواصل شكر تلك الانعم)

واما محاسن ابي البحر فجمة منها ما كان في حب اوطانه والحنين الى اهله وخلانه كقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(أأحبابنا والمرء يا ربما دعا أخا النأي ان ضاقت عليه مناوحه)
(هل الدهر مدينني اليكم فمبردٌ لهيب اشتياق يرمض القلب لافحه)
(كفى حزناً اني بشيراز مفرد اباكر ما يضني الحشا وأراوحه)
(وشوقاً لواسنجلي سناه اخوالدجى لاغناه عن ضوء المصابيح قادحه)
(احن فلاألقى سوى هاتف الضحى يطارحني شكوى النوى وأطارحه)
(يكاد اذا هزّ الجناح نخانه تقض بترجيع الحنين جوانحه)
(خلا انه ذو رفقة فمتى دعا تجبه على قرب المكان صوادحه)
(يشن عليّ البعد غارات جوره وتهتف بي من كل فج صوائحه)
(له الغلبُ فليثنِ الاعنة مبقياً عليّ فما عندي جنود تكافحه)
(سقى جدّ حفص الغيث سحّاً ولوهمى لها الدمع اغناها عن الغيث راشحه)
(ولازال خفاق النسيم اذا سرى عليلاً يمامي جوها و يصابحه)
(بلاد اقام القلب فيها فلم يزل وان طمحت بالجسم عنها طوامحه)
(هل الله مستبق ذماي بعودة اليها يريني الدمع قد هش كالحه)

ان هذا الشعر ليفيض شعوراً ولو ترجم الى اية لغة اجنبية لشارك الفرنجي الشاعر في حزنه وأشجانه وبكى لغربته وبعده عن أوطانه ، واما حنينه الى اهله وولده فيحاكي به حنين شاعر الفرنجة فكتور هوغو الى ولده وولع شاعرنا بولع شاعرهم أشبه من الجمرة بالجمرة قال ابو البحر :

(ان يصبني ذكر الديار فانه لاناث أصيبة بها وذكور)
(وجدي الصغير بها لاصغر صبيتي وكبير أشواقي بها لكبيري)
(وكريمة الطرفين جُرّ على الثقى والدين فاضل ذيلها المجرور)
(ومهفهف زرت غلائلهُ على غصن يميل به النسيمُ نضير)
(رشأ جراحاتي جبار عنده ابداً وكسري ليس بالمجبور)
(ضاحي الجبين وانه ليريك من تحت الخمار شمائل المخمور)
(انا اسعد الثقلين ان ادناهمُ مني رواحي نحوهم وبكوري)
(لأجشمن الناجيات اليهم والسفن قطع مفاوز وبحور)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ولالقين بحر وجهي نحوهم حرين حر هوىً وحر هجير)
(فعسى ابتذال الصون يفضي بي الى من صين تحت اكلةٍ وستور)
(فأبيت قدالقيت اعباء السرى وارحتُ ظهر مطيتي وبعيري)
(ان كان ذاك فياسعادة طالعي ونجاح آمالي ويمن طيوري)
(يامن اسيّر كل يوم نحوهم كتبي اذا اعيا على مسيري)
(لا تحسبوها انها كتبت لكم بسواد حبري بل سواد نظيري)
(من لا يطيق فراق يوم واحد لكم فكيف يكون بعد شهور)
(آهٍ ، وقلّ على أوال تأوهي فاذا جننت بها فغير كثير)
(ما كنت مبتاعًا ازقة فارسٍ بالفيح من عرصاتها والدور)
(هيهات ما شيراز وافية بما في تلك لي من نعمة وحبور)
(بلد تعادل صيفها وشتاؤها في الطيب للمقرور والمحرور)
(يتكاءدُ الرزق العباد وانه فيها على باغيه غير عسير)
(سيان عيشة كادحٍ ومرفه فيها ونعمة موسر وفقير)
(ان طبق المحل البلاد فاننا في روضة من خصبها وعبير)

الى ان يقول :

(لا عيب فيها غير ان حياضها شرَع لورد الليث والخنزير)
(هي جنة لو ميّزت نعماؤها ما بين عبد مؤمن وكفور)
(يا جادَها الهتن الملثّ فاصبحت غرضًا لمحلول النطاق غزير)

انا قرأنا في اللغة الفرنسية كثيراً من قصائد الحنين الى الاوطان والاهل والاخدان مما يحل الحليم له الحبوة ، وتنشأ له في قلب الخلي الصبوة ، واقسم لو قرأنا هذا الشعر في اية لغة فرنجية كانت او مايساميه ادبا ، لخرجنا من جلودنا طربا ، ولااقول هنا لطربي لو قال : بلد تعادل صيفه وشتاؤه لأصاب شاكلة الصواب وتظهر مزية هذا الشعر ، وسمو مرتبته ، اذا نُظر الى العصر الذي قيلت فيه وهو عصر الانحطاط الادبي في العالم العربي .

ومن ظرائف ابي البحر المستملحة انه بلغه عن بعض فتيان القطيف انه يقول الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاستنشده فأنشده مالم يرزق لديه حظوة ونقد شعره فوقع فيه ذلك الشعرور فقال ابو البحر هازلاً ومؤدباً ماينطبق على كثير من مستعلجة شعرائنا ومتفرنجة أدبائنا :

(يا خليليّ من ذؤابة شيبا ... نٍ ويدعى لما ينوب الخليلُ)
(ان هذا الفتى الذي وسم الشعـ ... ـرَ بعارٍ ما ان نراه يزولُ)
(قد نضى مدية الجهالة يفري ... ودج الفضل فهو منه قتيل)
(يا حماة القريض هبوا لاخذ الـ ... ـثار فالخطب لو علمتم جليل)
(وخذوا بالترات من قاتل الشعـ ... ـر فما الحزم ان تضاع الذحولُ)
(لاك في فيه شحمة الشعر من لم ... يدَر ما فاعل ولا مفعولُ)
(وادعى رتبة البلاغة في القو ... لِ غبي لم يدر ايش يقولُ !)

وقال فيه ايضاً وبنى قصيدته على مطلع لاخيه الغنوي وهو هذا :

(اعمل نفسك مثقالاً ومعياراً ... واسرر اباك بان يلقاك عطاراً)

فقال ابو البحر ما يشبه قول الشاعر الفرنسي الكبير بوالو (Boileau) في قصيدته (صناعة الشعر [1]) : « كن بالحري بناءً ان كان ذاك استعدادك » (Soyez plutôt maçon, si c'est votre talent) وقد نظمت هذا المعنى على البحر والقافية :

(كن بالحري انت بناءً ومعمارا ... ان كان طبعك هذا او فنجارا)

ابو البحر :

(او فاتخذ لك سنداناً ومطرقة ... واعمل متى شئت سكيناً ومسمارا)
(او فاتخذ لك منشاراً وقشترة ... وكن كنوح نبي الله نجارا)
(او صائغاً يسبك العقيان يبرز من ... ابريزه للنسا صفاً ودينارا)
(او فاتخذ لك مزماراً ودبدبةً ... وعش لك الخير طبالاً وزمارا)
(او كن فديتك صفّاراً فليس على ... علياك بأس اذا أصبحت صفارا)
(او كن كصاحبك الادنى اباحسن ... أعني علياً [2] فتى عمران زرّارا)

(١) L'art poétique . (٢) علي بن عمران من آل عبد المحسن من القطيف كان بينه وبين المتشاعر ألفة وحرفته صنعة الازرار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(او فاتبع ابن مهنى [١] في بزازته او فامش خلف فتى شنصوه [٢] قصارا)
(او فاسأل ابن مهني علم صنعته مما يفيدك بالدينار قنطارا)
(او عالج الأتن في أدوائهن وكن شروى خميس بن خضّاموه [٣] ببطارا)
(اوفاقتلع من رشالا [٤] الطين متخذاً منه الجرار وعش في الخط جرارا)
(اوفاقتن الأتن واحمل فوقها حطباً فخير شيء اذا أصبحت حمارا)
(اوفاحمل الفخ واذهب حيث شئت تصد به لصبية أهل الخط اطيارا)
(وان سمعت مقالي فامض متكلاً على الهك في الابوام [٥] بحّارا)
(وان ترفعت عن هذا فحيّ على استغفار ربك تلق الله غفارا)
(وقيما في بيوت الله تسمعنا أذانك العذب آصالاً واسحارا)
(اومنشداً مدح خير الناس!!! حيدرة او قارئاً في نواحي السوق اخبارا)
(ولا تلمّ بربع الشعر ان له ظعناً تأخرت عن مسراه اذ سارا)
(قد حلّقت بنفيس الشعر طائره عنقاء مغرب فاقعد عنه اذ طارا)
(وها كها كشواظ النار لافحةً أثناء قلبك لا تألوه اسعارا)

و بهذه الأهجية العجيبة حاكى ابو البحر مهرة السحرة من الفرنجة ، وانظر ما أوجع تهكمه بقوله ناصحاً : وان سمعت مقالي فامض متكلاً على الهك الخ . وما اكثر ادعياء الأدب فينا ممن لو شعروا بنقصهم وتخلفهم لما شعروا ، ولما عدوا من المفاخر ، ما يأتوننا به كل يوم من المساخر ، فنسأل الرحمن الرحيم ان يلهمنا رشدنا و يهدينا السراط المستقيم .

ابو قيس
عز الدين آل علم الدين

---

(١) محمد بن مهنى الحسيني من باعة البز في القطيف ومن أشراف البحرين له فضل وأدب أكب على علم الصنعة الالهية اي الكيمياء . (٢) سليمان بن محمد شنصوه كان قصاراً في البحرين . (٣) كان مشهوراً في القطيف بمعالجة الحمير والرفق بهم جزي خيراً . (٤) مقلع للطين . (٥) جمع بوم وهو السفينة الكبيرة ويعرف بهذا الاسم في خليج البصرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عدة الكاتب

— ٣ —

الوِصْر السجل والجمع اوصار . والوِصْر والوَصِيرة والوَصَرَّة والأوصر الصك والوِصْر كتاب الشراء والاصل إصر لان الإصر العهد وفي اللسان الوِصْر الصك وكتاب العهد .

السِفْر الكتاب . وقيل هو الكتاب الكبير والجمع اسفار والسافر الكاتب لانه يبين الشيء ويوضحه والجمع سفرة .

الصَّك الكتاب والذي يكتب للمهدة معرب چك وجمعه صكاك وصكوك وكانت الارزاق تسمى صكاً لانها كانت تُخرَج مكتوبة ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكاك والقطوط وفي حديث ابي هريرة قال لمروان احللت بيع الصكاك هي جمع صك وهو الكتاب . وذلك ان الامراء كانوا يكتبون للناس بارزاقهم واعطياتهم كتباً فيبيعون ما فيها قبل ان يقبضوها معجلاً ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه فنهوا عن ذلك لانه بيع ما لم يقبض . وفي المصباح الصك الكتاب الذي يكتب في المعاملات والاقارير وجمعه صكوك وأُصُكّ وصكاك . وصك الرجل للمشتري صكاً من باب قتل اذا كتب الصك .

القِطّ الصك بالجائزة . وكتاب المحاسبة . قال في اللسان والقِط في كلام العرب الصك وهو الحظ والنصيب . واصله الصحيفة للانسان بصلة يوصل بها .

الإضبارة الحزمة من الصحف وهي الإضمامة يقال جاء بإضبارة من كتب وإضمامة من كتب وهي الأضابير والأضاميم .

وضَبَرَ الكتب يَضْبُرها ضَبْراً جعلها إضبارة . وضبّرها تضبيراً جمعها والضُبار الكتب لا واحد لها [1] .

---

(١) والضَبْر جلد يغشي خشباً فيها رجال يقربون الى الحصون لقتال اهلها والجمع ضبور . ومنه قولهم انا لا نأمن ان يأتي بضبور هي الدبابات التي تقرب للحصون لتنقب من تحتها الواحدة ضَبْرة . والضَبْر الجماعة يغزون على ارجلها . والرَجّالة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدفتر بفتح الدال وكسرها جماعة الصحف وقال الجوهري الدفتر واحد الدفاتر وهي الكراريس .

البَرْنامَج . الورقة الجامعة للحساب .

الرَاهْنامج . كتاب الطريق يسلك به الربانية البحر يهتدون به في معرفة المرامي وغيرها وهو معرب .

الفهرس بكسر الفاء والراء وسكون الهاء الكتاب الذي تجمع فيه الكتب . وهو معرب . وقال الخوارزمي هو كتاب ودفاتر تذكر فيه الاعمال ويكون في الديوان وقد يكتب فيه اسماء الاشياء . وفي شفاء الغليل ان هذه اللفظة فارسية وفارسيتها بكسر الفاء وسكون الهاء وكسر الراء المهملة تليها سين مهملة ساكنة ثم مثناة فوقية ساكنة ايضاً [فِهْرِسْتْ] ومعناها اجمال الاشياء لتعديد اسمائها وحصرها مطلقاً على الترتيب . ثم انهم عربوه فقالوا فهرس يفهرس فهرسة كدحرج . وفي التاج وقد اشتقوا منه الفعل فقالوا فهرس كتابه .

البطاقة . الورقة وقيل رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما تجعل فيه ان كان عيناً فوزنه اوعدده وان كان متاعاً فقيمته . وقيل الرقعة الصغيرة تكون في الثوب وفيها رقم ثمنه .

الرُقْعة واحدة الرقاع التي تكتب .

المنشور من كتب السلطان ما كان غير مختوم .

الطامور والطومار الصحيفة قيل هو دخيل وقال ابن سيده أراه عربياً محضاً لأن سيبويه قد اعتده في الابنية فقال هو ملحق بفسطاط .

الأُلوك والأَلوكة والمَأْلُك والمأْلَكة والمأْلُكة . الرسالة .

القائمة الورقة من الكتاب وقد تطلق على جميع البرنامج .

الرفيعة القصة يبلغها الرجل ويرفعها على العامل يقال لي عليه رفيعة ورفائع وهو مجاز .

الرَقيم الكتاب يقال رقمت الكتاب اذا كتبته فهو رقيم ومرقوم ورقم الكتاب يرقُمه رقماً أعجمه وبينه وكتاب مرقوم اي قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط . ورَقَمْتُ الشيءَ أعلمته بعلامة تميزه كالكتابة ونحوها . والتاجر يرقم ثوبه بسمته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورقّن الكتاب ترقيناً زينه . والمرقّن الكاتب وقيل المرقّن الذي يحلّق حلقاً بين السطور كترقين الخضاب .

ويقال رقّن الكتاب اذا قارب بين سطوره وقيل رقّنه نقطه وأعجمه ليتبين والترقين في كتاب الحسبانات تسويد الموضع لئلا يتوهم انه بيض كيلا يقع فيه حساب . وفي التاج والترقيم والترقين بالميم والنون علامة لاهل ديوان الخراج من اصطلاحاتهم وذلك بان تجعل على الرقاع والتوقيعات والحسبانات لئلا يتوهم انه بيض كيلا يقع فيه حساب .

ويقال بنّق الكتاب اذا جوده وجمعه .

ونبّق الكتاب سطره وكتبه . ونبق الكتاب لغة في بنقه والنَبْق مثل النَمْق الكتابة . يقال نَمَق الكتاب ينمُقُه نمْقاً كتبه ونَمّقه حسنه وجوده . ونَمّق الجلد ونَبّقه نقشه وزينه بالكتابة . والنَمَق الكتاب الذي يكتب فيه .

ولمَق الشيء يلمُقه كتبه . ولمقه محاه وهو من الاضداد يقال لمقه بعدما نمقه اي محاه بعدما كتبه .

الرَقْش الخط الحسن . والرَقْش والترقيش الكتابة والتنقيط والترقيش التسطير في الصحف .

الخَرْبَشة افساد العمل والكتاب يقال كتب كتاباً مُخَرْبَشاً . وكتاب مخربَش اي مفسد . وكان كتاب فلان مخربشاً اي فاسداً . والخَرْمَشة افساد العمل والكتاب . وقد خرمشه . والخربشة والخرمشة الافساد والتشويش[1] .

عضو المجمع العلمي العربي

سليم الجندي

(١) هكذا جاءت لفظة التشويش في كتب اللغة فنقلناها على ما فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فصح وشوارد

حُييت وسَعِدت ، لاشقيت في عيشك ولا بعِدت . فمن انتم خلَد عليكم النعم . رموهم عن قوس العداوة واضمروا لهم ضِغن الشنآن . من فُرَص اللص ضجة السوق . يقال هو يُخلي وربما مرت له الابيات مفسولة ليس فيها بيت رائع اي يعمل الابيات ولا تصيب فيها بيتاً نادراً كما ان الرامي اذا رمى يرشقه فلم يضب منه بشيء قيل اخال . امدهُ الناس ابصارهم واسماعهم متوقعين لما يتمُّ به . ضحك الناس به وصار شهرة . تقول العرب مَدَجَّج ومُدَجِّج وعبد مكاتِب ومكاتَب وشاد مغرِّب ومغرَّب ومكان عامر ومعمور وآهل ومأهول ونَفست المرأة ونفِست وعُنيتُ بالشيء وعَنيت به وسعِد فلان وسُعِد وزُهي علينا وزها . اي ان هذه الالفاظ كما قال الثعالبي تأتي بلفظ المفعول مرة وبلفظ الفاعل مرة والمعنى واحد .

يقال سر كاتم اي مكتوم . يقال ظلَمه اذا نسبه للظلم وجهله اذا نسبه للجهل . ما رأيت احداً أشد بَذَخاً بالكفر من فلان . تقول اكريت الدار مشاهرة ومسانهة ومياومة ومناهرة وملايلة ومساوعة من الساعات . وما امنع ان يكون ... وما ادفع ان تكون ... فلان مُضيَّق محَنق اي متضايق من الدين متألم . شمل البلى ابلادها (آثارها) . يقال امرأة ذَكِرة اذا تشبهت بالذكور . ليس يحل لاحد قرْفه به (اتهامه) . كما وصفت بديًّا (اي بادئ بدء) . انه لحبيب اليَّ ان اوفر اموالهم . استيقظ فزعاً وقد بَشِع بهم اي ضاق بهم ذرعاً . وايم الله لو اردت غير هذا من رخاء او غضارة عيش لكان اللسان به مني ذلولا . فكان اذا صُنع له طعامه هيِّئ على شيء وغطي حتى اذا دخل اجتبذه فأكل . لم يأل حتى تملأ . حسن الجسم ممتلئ البَضعة . ولعمري ان هذا للجَوْر حق الجور . نحن في ايام الفصل (Demi - saison) لاشتاء ولا صيف . هن في الجمال والبزازة وحسن الهيأة كما شاء ربك . ضاهوا العامة في بعض ما يفرط من كلامهم وترعف به مراعف افلامهم .

[قال الثعالبي : كلمة واحدة من الالفاظ تختلف معانيها باختلاف مصدرها وليس للعرب كلمة مثلها هي قولهم وجد ، كلمة مبهمة فاذا صُرِّفت قيل في ضد العدم وجوداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي المال وُجْداً وفي الغضب موجِدة وفي الضالة وجداناً وفي الحزن وَجْداً . وقال: فصل في الفرق بين ضدين بحرف او حركة ذلك من سنن العرب، كقولهم دَوِيَ من الداء، وتداوى من الدواء واخفر اذ أجار وخفر اذا نقض العهد وقسط اذا جار واقسط اذا عدل واقذى عينه اذا القى فيها القذى وقَذَاها اذا نزع عنها القذى وما كان فرقه بحركة كما يقال رجل لُعَنَة اذا كان كثيراللعن ولُعْنَة اذا كان يُلعن وكذلك ضُحَكة وضَحْكة في أشباه لذلك] .

حدوة لهم على استعمال الامانة — اي سوق لهم وحث . استوبلوا عواقب الامور — استوبل الشيءَ اذا تركه لوخامته وان كان محباً له . الناس فيه أسوة — سواء — اياك والعجلة بالامور قبل اوانها ، او التسقط (التهاون) فيها عند امكانها . لقد تيست فيها وتئس مالك — تيسه تتييساً رده عنه ومنه حديث علي لاتيسنهم عن ذلك اي لايطلن قولهم . فلان هرّه الناس اذا كرهوا ناحيته . تطنفت نفسه الى المحقرات — اشفت واشرفت عليه . ولا ينتجي الادنين فيما يحاول — يقال انتجاه اذا افضى اليه بسره وخصه به .

للمؤمل بن اميل مات في حدود سنة ١٩٠ .

لا تغضبن على قوم تحبهم ... فليس منك عليهم ينفع الغضب
ولا تخاصمهم يوماً وان ظلموا ... ان لولاة اذا ما خوصموا غَلبوا
يا جائرين علينا في حكومتهم ... والجور أقبح ما يوتي و يرتكب
لسنا الى غيركم منكم نفرُّ اذا ... جرتم ولكن اليكم منكم الهرب

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٦ =

ويقول دانتي في أغنيته الاولى من جهنم انه سأل فيرجيل كيف كان حضوره اليه في الغابة المهلكة وفي ذلك المقام المخيف ، فيجيبه فيرجيل ان بياتريس (وهو اسم معشوقته كما تعلم) قداستدعته من مقره واستحلفته ان يذهب و ينجد محبو بها و يسعف ملتمسه ، وان شفقتها على محبو بها هي عذرها في التماسها هذا منه ، وانها وعدته بالثناء عليه عند عودتها الى سيدها (ربها) . الاغنية الثانية من جهنم .

وفي الاغنية الثالثة يقول : ولما وصلنا (هو وفيرجيل) الى ساحل ذلك البحر الجهنمي ظهر لنا شيخ معمم (عمه الشيب) على سفينة وصاح بنا الويل لكنّ ايتهاالانفس الشريرة لا تترجين البتة في الرجوع الى رؤية السماء ، ها انا آت لاحملكن الى الشط الآخر في منطقة الظلمات والى وسط النيران المضطرمة والجليد الابدي ، وانت ايها الانسان الحي من هم الذين اتوا بك الى هنا ؟ أبعد عن الاموات الخ حينئذ قال له قائدي (اي فيرجيل) ياكارون لا تدافع ، : هكذا يريدون هناك حيث يقدرون على كل ما يريدون فلا تسأل شيئاً فوق هذا :

اما هي قصة ابن القارح مع رضوان والزهراء وجاريتها بعينها ؟ هذه في الفردوس ودانتي في جهنم والاسماء مختلفة فقط . وكما اجتمع ابن القارح في الفردوس مع جماعة من الشعراء الزنادقة ، فان دانتي يجتمع في جهنم مع أعاظم الشعراء الوثنيين وهم هوميروس وهوراس واوفيد ولوكان (او لوكانس) ، ولكن لم يجتمع بهم ليسألهم ان ينشدوه أشعارهم للتحقيق عنما نُقل عنهم في الادب او التاريخ ، بل ليعترفوا له بالفخر الذي هو به جدير ، و يعدوه سادسهم ، (وان لم يذكر اسم الخامس فهو قائده ومرشده فيرجيل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانه مشى معهم حيناً نحو ذلك النور الساطع (في ظلمات جهنم) وانهم قد تحادثوا بما يحسن السكوت عنه في هذا الوقت ... وقد وجدنا انفسنا قرب قصر منيف محاط بسبعة اسوار يجري تحته نهر سلسبيل غير عميق ، قطعناه بسهولة ، ثم دخلنا الى ذلك القصر من سبعة أبواب (حكاية عدد السبعة) حتى وصلنا الى روضة رصعها نبت نضير رطب ... ثم يجتمع بطائفة من فلاسفة اليونان والرومان يذكر اسماءهم ، ويذكر اسم الرئيس ابن سينا وابن رشد واسماء بعض القياصرة وبينهم اسم صلاح الدين الايوبي . (الاغنية الرابعة من جهنم) .

بيد ان هذا الاجتماع وان حصل في جهنم ، فقد كان في قصر فخم منيف تحف حوله رياض وانهار ... (ونترك الكلام الآن على أمثال هذا الخلط الى الخاتمة) .

وكما صور المعري تلاعن ابن القارح والشياطين ولنناشد ابليس الزبانية ان يجذبوا ابن القارح الى اعماق جهنم وجوابهم له ليس لنا يا ابا زوبعة على اهل الجنة سبيل ... فان دانتي يقول في الاغنية السابعة :

.. وصاح بلوتوس بصوت أجش يا ابت ابليس ، يا ابت ابليس اجذبه ، ولكن قائدي الكريم قال لي لكي يعيد الشجاعة الى نفسي لا تخف شيئاً ، فانه مهما بلغ سلطانه لن يمنعك عن النزول الى هذه المنطقة ، ثم التفت نحو هذا الشيطان وصاح به ، اخرس يا ذئب اللعنة ، وانشق انت نفسك من غيظك فاننا لسنا ندخل دون غرض الى جهنم ، فانه هكذا يراد هناك ، حيث ميخائيل جازى الكبرياء القبيحة الخ الخ ..

وقد أورد مثل هذا في الاغنية الثانية والعشرين ولعلنا نلمح اليها في الخاتمة . وفي الاغنية الثامنة عشرة يذكر جسراً قديماً (في جهنم) وقف عليه مع مرشده ورأى عدداً عظيماً من اهل النار يتبعهم الزبانية متسلحين باسواط لامعة وهم يجلدونهم بها جلداً متناهياً في القساوة والغضب وبينهم شيخ عظيم الهيكل لا يظهر عليه اثر للألم ...

فكأنه يعيد لنا ما ذكره المعري عن بشار بن برد بلفظ مختلف واسماء اعجمية .

وفي الاغنية الرابعة والعشرين يذكر وصوله وقائده الى جسر ساقط متهدم وان قائده رفعه الى قمة صخرة وقال له تعلق شديداً بهذه البقية الباقية ولكن تحقق اولاً من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوتها الخ الخ . وهي حكاية الصراط في رسالة الغفران ، لكنها هنا مسرودة بصورة فقيرة واسلوب غثيث .

« في المطهر »

يجد عند باب المطهر شيخًا هو بواب المطهر يمنعه الدخول (قصة رضوان) و يعيد فيرجيل له القول عن امرأة نزلت من السماء وطلبت منه ان يأخذ دانتي في ظل حمايته ... ثم يقول له البواب ان كان ثمت امرأة سموية تحبك وتشجعك فلا حاجة بي الى مجاملتك ومديحك بل يكفيني ان تكلمني باسم المرأة التي ارسلتك .

وكأن دانتي اعاد قراءة رسالة الغفران ووجد انه لم يشر في أُلعوبته الى حكاية قصيدة ابن القارح في مدح رضوان عند دخوله مع فيرجيل الى الجحيم ومخاطبتهما البواب هناك ، فاستدرك ذكر ذلك مع بواب المطهر وجوابه له لاحاجة بي الى مديحك ومجاملتك . أوَ لا يقول الناقد المنصف عند هذا البرهان الناصع وأمثاله مما تقدم ذكره ما أشبه الليلة بالبارحة ، وقد برح الخفاء بالحجة الواضحة .

« في الفردوس »

في الاغنية الخامسة وقد انتقل الى الطبقة الثانية من طبقات الفردوس او السماء يرى نفسه مع بياتريس مع نسوة حسان نورانيات يدرن حوله وحول بياتريس راقصات يغنينه حتى تكاد بياتريس تسكر معه من انوارهن وغنائهن . وكأنه يعيد لنا بهذا المشهد عودة ابن القارح الى قصره في الجنة وقد حفت الحور بسريره الخ .

وفي الاغنية العاشرة وما بعدها تسأله بياتريس اوروح أُخرى (وتلك الأرواح لاتظهر له الا بصور نساء حسان نورانيات) أتريد ان تعلم ماهي الازهار التي تزين هذه الهالة التي تراها حول المرأة النورانية (بياتريس) ؟ ثم تبدأ فتسمي له علماء ورهباناً وقديسين وشهداء باسمائهم ، وتقول له هذا استحق الفردوس بكتابه كذا ، وذاك برسالته كذا ، والآخر بمؤلفه التأملات كذا ، كتوما الاكويني واغوسطينوس وكراتيانوس ، ودومينيكوس وغيرهم كثيرين ... وهو عين ماذكر في رسالة الغفران ، باختلاف في الاسماء والالفاظ عن شعراء الجاهلية . وفيما يأتي بعدها من الاغاني الفردوسية يذكر شجرة تحيي بمائها وتثمر دائماً ، ولا يسقط ورقها ، اما اثمارها فأرواح سعيدة كان لها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهرة عظيمة على الارض قبل ان ترتفع الى السماء ... وهي بعينها شجرة ابن القارح في الفردوس تنفض من الجوز عدداً لا يحصيه الا الله ، تنشق كل جوزة عن اربع جوار يرقصن على ابيات الخليل فتهتز ارجاء الجنة ... ويخاطب النسر في الفردوس والنسر يجاوبه ، كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبته الاسد وركوبه بعض دواب الجنة ، الى كثير من أمثاله . وآخر ما يسمعنا في فردوسه صورة ايمانه ، وليست من الشعر في شيء ، ولا من عجائب السماء ؛ ولا من الحوادث النادرة .

« خاتمة »

فاذا نظر الناقد المنصف بعين لا يطرفها ثوب العصبية ، وروح تجردت من درن الشعوبية ، فيما بسطناه في هذه الموازنة من البراهين ، وأجملناه من الادلة الناصعة ، حكم معنا حكماً لا مردود له ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران ، لا يسترها ما ألقاه عليها دانتي من جلابيب الظلمات ، وما لحفها به من السحب الكثاف المدلهمات ، ولا يواريها عن الاعين النقادة كثرة المنخفضات والمنعرجات ، ولا الاقواس الهندسية والاشارات الفلكية ولا ما أدمجه فيها من كثرة الاسماء الاعجمية والآلهة اليونانية ، ولا الحلة الشعرية . ولله در القائل :

(من رام طمس الشمس عمداً اخطا الشمس بالتطهين لا تغطى)

وكان الأجدر به لو أنصف ، ان يسمي ابا العلاء قائده ومرشده ، لا فيرجيل فهذا لا يد له في هذه الحكاية ، وان قيل ان ابا العلاء كان غريباً عنه في اللغة والدين ، قلنا ان فيرجيل لم يكن أقرب فيهما اليه . ولكن انّى له ان يشير الى اسم المعري وفي ذكره اسرع تنبيه الى فضيحة الالعوبة ، وهي التي كان يرى في نشرها اعلاء شأنه وخلود اسمه ، على انه ان كان قد فاته المجد في حياته ، فقد نال خلود الاسم كما توقع بعد وفاته . ثم ان شهرة فيرجيل وهو ابن أمته ، كانت كما هو معلوم قد طبقت الخافقين ، فرأى ان يستظل باسمه ، وفي ذلك له غاية الشرف وابعد مجال التضليل في اصل الالعوبة . ومع هذا فلعل دانتي كان اكثر انصافاً من كثير من علماء زمانه وقد كانوا ينسبون الى انفسهم اكثر كتب علومنا التي ترجمت الى لغتهم اللاطينية كما مر بك قبل هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقي ان نشير في هذه الخاتمة الى مايعرض للناقد من الحيرة والدهشة بل من الدُوار عقب مطالعة الالعوبة الالهية والتبصر فيما اشتملت عليه من شتى الاغراض ، وتباعد منا حيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف حتى بات كل واحد من هـذه الاغراض غريباً في مكانه بعيداً عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية جديرة بان تسمى كناشة حكايات بيتية ، واخبار بلدية ، او مجموعة من شتى الأحداث ، او كشكولاً حوى معجماً صغيراً من الاسماء المشهورة والمجهولة ومباديء بعض العلوم ومنازعات قومية وآراء سياسية وفلسفية وشرعية ودينية وتاريخية وعلمية وشعرية ولغوية وشيئاً من علمي النبات والحيوان ومن عجائب المخلوقات بل اوهاماً وتخيلات وحماسة ، وكله متداخل بعضه في بعض بنظم شعري .

وقد يقول بعض فطيري الرأي ، انهـا لم تنل ما نالته من الشهرة البعيدة ، ولم يُعَدّ مؤلفها ثالث شعراء الافرنج ، الا لما نعده هنا عيباً ونحن نقول في الجواب على هذا ، ان الموازنة تقتضانا ان نشفع الاعتراض بالبرهان والنقد بالحجة المنطقيـة واليك البيان .

« للكلام بقية »

عضو المجمع العلمي

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مطبوعات حديثة

كتاب بادية العرب (١)

تأليف المستشرق التشكوسلوفاكي ألويز موزيل (Aloes Musil) أستاذ الدروس الشرقية في جامعة شارلس ببراغ وعضو المجمع العلمي العربي

لم يكد ينجو حتى العلماء من تسخير الحكومات في الحرب العظمى . فالحكومة وان جازت العالم على عمله ، كانت تسخر علمه لاغراضها السياسية والحربية . ومن العلوم المسخرة في تلك الايام المشرقيات . ومن المسخَّرين — مأجورين كانوا او متطوعين — ثلاثة معروفون اليوم لان اقلامهم نمّت عليهم . ثلاثة من الاوربيين هم الكرنل لورنس وهو اكثرهم شهرة واقلهم علماً ، ومؤلف هذا الكتاب وهو اكثرهم علماً واقلهم شهرة ، والمستر فلبي ثاني هذا وذاك في العلم وفي الشهرة .

على انه لم يفز من الثلاثة فوزاً باهراً ، من الوجهة الحربية والسياسية ، غير واحد وهو لورنس . ولم يفز من الثلاثة ، من وجهة علمية ، غير واحد هو الاستاذ موزيل . اما من الوجهة الادبية المحضة فالثلاثة متساوون في العظمة والكرامة — الثلاثة من المسأين ؟ في حلبة الفن . كتب لورنس كتاباً كله طعن وضرب ونسف وتدمير — كتاباً هو قصة عنترة الانكليزي ولكنه خلو من الشعر . وكتب فلبي رحلته في مجلدين فحاول في أسلوبه ان يقلد الرحالة الشهير هنري دَوْطي فخرج عن البساطة المحمودة ولم يدرك الصناعة المنشودة . وألف الاستاذ موزيل كتباً ضخمة باسلوب عادي عمل لا يستغوي من القراء غير من له غرض علمي او مصلحة سياسية او اقتصادية في البلاد العربية .

قد رحل هذا المستشرق المعروف بين العرب بالشيخ موسى الرويلي ، بضع رحلات

(١) طبع باللغة الانكليزية في مطبعة الحكومة (Stàni tiskàna, Prague) للجمعية الجغرافية الاميركية بنيويورك (American Geographical Society, New York) بعناية المجمع العلمي التشكوسلوفاكي والمستر كراين الاميركي المشهور بحبه للعرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في القسم الشمالي من هذه البلاد ، فكانت الرحلة الاولى في البتراء وأطراف الحجاز الشمالية في سنوات ١٨٩٦ — ١٩٠٢ ، والرحلة الثانية في الحماد والاراضي الواقعة بين الجوف جنوباً والمياذين على الفرات (١٩٠٨—١٩٠٩) ، والثالثة في تدمر وجوارها (١٩١٢) ، والرابعة (١٩١٤ — ١٩١٥) ، هي الرحلة السياسية من اجل الدول الوسطى في الحرب العظمى .

وقد كتب رحلاته باللغة الالمانية ونشرها في بضعة مجلدات . ثم تعاون على مايظهر المعهدان التشكوسلوفاكي والاميركي ، اي المعهد العلمي ببراغ والجمعية الجغرافية بنيويورك (وكان المستر كراين اساس هذا التعاون) في طبع الرحلات باللغة الانكليزية . فظهر في السنة الماضية المجلد الاول منها « البتراء وشمالي الحجاز » وبين يدينا الآن المجلد الثاني « بادية العرب » وسيتبعهما الثالث والرابع .

يقسم هذا الكتاب المطبوع طبعاً جميلاً ، المزين بالرسوم ، المشفوع بعدة خارطات ، الى ثلاثة أقسام : وله ملحق طويل هو كتاب بنفسه . اما الاقسام الثلاثة فأولها وأكبرها هو ثمرة الرحلة الكبرى في الشمال . وثانيها حكاية رحلة صغيرة في العراق من عين التمر الى قصر الاخيضر فالنجف . وفي القسم الثالث جزء من رحلته الاخيرة (١٩١٤ — ١٩١٥) التي رحلها من الشام الى الزبيبيات (في قلب الحماد) ومنها الى الجوف ، فحائل ، فالمشهد (النجف) .

وفي الملحق نبذات تاريخية عدة منها نبذة طريفة في عرب الشمال في عهد الاستيلاء الاشوري . ونبذة عن دومة الجندل (الجوف) قبل الاسلام وبعده . وأخرى عن طريق القوافل القديمة والحديثة في القسم الشمالي من شبه الجزيرة . والنبذة الثامنة (الاخيرة) في الطريق التي سلكها خالد بن الوليد من العراق الى الشام بموجب روايات المؤرخين العرب كالطبري وابن عساكر وابن العبري والبلاذري وغيرهم .

في هذا الكتاب إذن بحر من العلوم التي تهم علماء المشرقيات وتفيد المتأدبين من ابناء العرب . وقد برز لنا في ما يؤثر منه امران اولهما العذاب الذي يقاسيه الرحالة المستعرب في طلب العلم ، وثانيهما التدقيق الذي يتحراه في نقده ثم في تسجيله للناس . وطريقة الاستاذ موزيل هي الطريقة العلمية الالمانية التي لا يتعدى المحسوس في مثل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه الرحلات ، وقلما تسمح للنفس التي يروعها الجمال — جمال الشكل وجمال المعنى — ان تعاون الضمير الذي لا يهمه غير الحقيقة الحسابية .

— ٢ —

كانت دمشق باباً للرحلات الثلاث التي يحمل هذا الكتاب اخبارها . فجاءها الرحالة في اول عهد الدستور العثماني ، وجاءها عندما أصبح الدستور ساطوراً لضرب أعناق أعداء الاتحاديين (١٩١٢) ثم جاءها في نوفمبر سنة ١٩١٤ وقد أمست الدولة العثمانية سيفاً بيد الالمان ، فكان في الرحلتين الاولتين عالماً ، وكان في الرحلة الاخيرة سياسياً او مسخّراً للدعاية الالمانية . ولكن عمله الدائم المحاسن والفوائد هو عمله العلمي الجغرافي . و يعود الفضل الاكبر في تمهيد سبيله وحمايته في البادية الى صديقه الصدوق الامير نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولا . على ان تلك الحماية لم تكن دائماً فعلية فعّالة . ومن اين لها ان تكون كذلك واعداء النوري يومئذ كثيرون في بادية الشمال وفي الجنوب ، فلم يكن للرولا من القبائل الموالية غير القليل كبعض الحويطات وولد علي والعمارات .

رحل الاستاذ موزيل — الشيخ موسى الروبلي — في خريف سنة ١٩٠٨ الى الميازين على الفرات ، ومنها نزل الحماد ، ورحل منها الى وادي سرحان ، فالجوف ، فالهوجا حيث كان الامير نوري الشعلان مخيماً ، ومن الهوجا عاد شمالاً فوصل الى اللاّهة[1] قرب جبل عنيز (عنزي)[2] جنوباً بشرق منه . ثم رجع جنوباً الى سكاكه وقاره ، فاجتمع بنوري ثانيةً هناك ورافقه شمالاً فمرج على قصر الازرق وقصر الحلاّبات وعاد الى الشام بعد سبعة اشهر من ارتحاله منها .

سبعة اشهر في البادية وفي ايام لم يكن ابن سعود قد استولى عليها كلها . فلا عجب اذا كانت الأسفار محفوفة بالاخطار . فقد كانت قافلة الشيخ موسى عرضة للصوص

(١) لاهه — وقد جاءت في معجم البلدان الإلاهه — كانت قديماً الحد الفاصل بين عرب الحيرة الذين كانوا يدينون للفرس وبين عرب الشام الذين كانوا يدينون للرومان .

(٢) جبل عنزى هو اليوم اقصى نقطة الى الشمال في حدود المملكة النجدية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والغزاة ، فوقعت بايديهم مراراً ، ونجت بفضل الكرام الشجعان من العرب ، وفي مقدمتهم الامير نوري وابنه نواف والشيخ رشيد بن سمير من مشايخ ولد علي .

ولم يكن الشيخ موسى موفقاً بخدامه وأدلائه فسلبه احدهم ماله ، وخانه الآخر ، وهجره الثالث ، وكان الصالح منهم « يصلي و يغلّي نفسه » فسرت الى الشيخ « بركاته » والعياذ بالله . ثم أسر وأهين في سكاكه ، ومرض ورفيقه بالحمى . هي المشقات في بادية العرب بعضها ينسيك بعضاً ، و يلزمك بعضها لزام الظل ، فيوماً ترتشف الماء من الموحلات في قعور الآبار ، و يوماً تكاد تهلك من الظماء ، تحرقك في النهار شمس الهاجرة ، وتتألم في الليل من شدة البرد وانت لا تأذن ربعك بشب النار خوف ان يهتدي اليكم اللصوص .

سبعة أشهر من هذه الاخطار والمشقات . ثم عاد الشيخ موسى (موز يل) الى الشام ظافراً بما كان ينشده من العلم — والغنيمة الكبرى السلامة .

وقد ألم هذا العالم بالعلوم التي تختص باماكن المياه التي نزلها والتي سمع بها ، وبمن نزلها من الاقدمين ، وبمن ينزلها اليوم ، و بالطرق اليها القديمة والحديثة — طرق الفاتحين من بلاد آشور وطرق القوافل من الشرق الى الغرب — مستشهداً باقوال العرب المؤرخين منهم والشعراء وبما اكتُشف في بابل من آثار الآشور يين في أواخر القرن الماضي — ومصححاً في بعض الاماكن أغلاط ياقوت الجغرافية وأغلاط الطبري وغيره التاريخية .

اما وصفه للبلاد ، جبالها وتلولها وأوديتها وشعابها وآبارها وغدرانها وسبخاتها وخيراتها و براكينها وآثار البراكين والضلوع المكونة من الحمم ، فوصف علمي تام اي وصف جيولوجي جغرافي . وهو مع ذلك لا يخلو في بعض الاماكن من الجمال كوصف الحماد عند الغروب (صفحة ٧٣) والخَبْرة (صفحة ٧٦) والقرَت او القرْت بالتسكين كما يلفظها البدو (صفحة ٤٦٦) والسراب (صفحة ٢٢٧) وشجر الغضى في النفود (صفحة ١٤٩) وقد قال ان نار الغضى تدوم تحت الرماد عشر ساعات لا غير .

ومن فوائد الكتاب لمن يروم درس القبائل ، او لمن لهم أشغال معها ، ماجاء فيه عن عرب الرولا والعمارات والفدعان وولد علي . فقد ذكر المؤلف أفخاذ كل قبيلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبطونها وشيوخها ومضاربها والاماكن التي تصيف وتربع وتشتي فيها . وأهم ما جاء في هذا الباب احصاؤه لعرب الصليب الذين تضاربت فيهم آراء العلماء والمؤرخين . وتقسيم الصليب الى اقسام تدعى بآل كآل ماجد في جوار الكويت ، وآل جميل في القصيم ، وآل بنّاق في جوار حائل ، وآل وذيح وآل راضي في الحماد الخ . وعددهم بأسرهم ثمانية عشر بطناً وعدد خيامهم كلها ١٤٦٠ خيمة . والصليب تدفع الخوة للبدو المجاورة لهم مقابل الحماية . ولكل قبيلة كبيرة شيخ خاص بذلك ، هو ضابط الارتباط بين تلك القبيلة والصليب المقيمين في ديرتها او جوارها .

كأن هؤلاء العربان من غير العرب اصلاً . وقد قيل في ذلك أقوال هي كلها من باب التخمين . فقد يكونون من بقايا الصليبيين في هذه البلاد . او كما قيل للاستاذ موزيل وقيل لنا — وهو الارجح — قد دخلوا البلاد العربية من الحساء فيرجح إذن ان يكونوا من بقايا الصابئين والله أعلم .

ومن محاسن هذا الكتاب ان اسماء الاعلام والاماكن والآبار مضبوطة كلها بقدر مايستطيع الاجنبي ضبطها ، فيمكن القارئ العربي — اذا ماعرف القاعدة ان يردها الى اصلها دون ان تلتبس عليه السين والصاد مثلاً ، او الطاء والتاء ، او الدال والضاد .

على انه من وجهة انكليزية ، يُنتقد على المؤلف انه في الطبعة الانكليزية لم يتبع القاعدة المصطلح عليها في اكسفورد والجمعية الملكية الآسيوية ، والتي أصبحت شائعة بين المستشرقين والادباء الذين يكتبون في المواضيع الشرقية . ومن اكبر شواذه في هذا الباب انه عبر عن الياء بالجيم (J) وهي بالانكليزية لا تؤدي معناها بالالمانية . فالقارئ الاميركي او الانكليزي الذي يقرأ (Dmejr to Al-Mijadin) لا يستطيع ان يلفظ الكلمة الاولى ويقول في الثانية : المجادين لا الماذين . فكان ينبغي للمؤلف او المحرر ان يستعيض عن هذه الجيم (J) بالـ (Y) فيكتب (Jamama) لا (Yamama) و (Zabibiyat) لا (Zabibijjat) .

ومما يزيد في حجم الكتاب ويضجر القارئ التدقيق في بعض الامور التي لا تفيد ولا تهم احداً ، مثال ذلك مما لا تكاد تخلو صفحة منه : « من الساعة ٠٨/١١ الى الساعة ٢٢/١١ استرحنا . وفي الساعة ٢٤٥ بعد الظهر وصلنا الى شعيب الغَرّى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شمالي آبار الشُبَيْشة » . « رعت جمالنا من الساعة ٩/٥٦ الى الساعة ١١/٤٢ » .

وهل ينقص الكتاب او العلم شيء نافع اذا أُهمل مثل هذا التدقيق في الاستراحة والرحيل . وفي مرعى الاباعر ؟ .

— ٣ —

في الرحلة الثالثة (١٩١٤ — ١٩١٥) يوم جاء الاستاذ موزيل (الشيخ موسى الروبلي) دمشق كان الامير نوري الشعلان معتقلاً في الضمير ، فتوسط لدى الحكومة من دجلة ؟ فأطلقت الحكومة سراح الامير بعد ان تفاهمت واياه على محاربة الانكليز وعدها النوري وعداً كان الشوق الى البادية ، بل الى الفرج ، اكبر مافيه ، وأسرع بعد ذلك في الرحيل دون ان ينتظر صديقه ومنقذه الشيخ موسى .

ثم سافر الشيخ موسى وهو ينشد شيخ شيوخ الرولا . راح يفتش عليه في البادية ، وظل يطوّف عشرين يوماً قبل ان ظفر به في مخيمه بخَبْرة الهَجْم جنوبي اللاهة في قلب الصحراء . وقد كان أوفر حظاً في هذه الرحلة منه في الرحلة الاولى . كيف لا وهو الآن مندوب او شبه مندوب الدول الوسطى في الحرب العظمى ؟ كيف لا وقافلته هي ضعفا ما كانت في السفرة الاولى وفي أحمالها الهدايا لشيوخ البدو ؟ رحلة علمية خيرها جزيل لا يرافقها غير الشقاء . ورحلة سياسية لا خيرفيها لاحد ترافقها التجلة والكرامة . هي الحياة حتى في البادية .

وما أجمل ما كان من استقباله في مخيم النوري بخَبْرة الهَجْم . جلس اخو العرب الشيخ موسى الفلاخي (Czech) الى يمين الامير ، وكان في سلامه ، وفي شوقه ، وفي اسئلته كواحد من العرب ، بل كواحد من بيت الشعلان . وقد حزن حزن واحد منهم عندما سأل عن بعض اصدقائه الغائبين وسمع الجواب .

— « وممدوح بن سَطّام ، وعذوب بن مجْول ، وسعود (ابن الامير نوري) اين هم ؟ » فأجاب الامير بكلمة واحدة : « راحوا » .

ثم أخبر أخاه الشيخ موسى كيف قُتل عذوب في الغزو . « عادت فرسه وحدها ملطخة بالدم » وكيف قُتل ممدوح في غزوه بعض عربان شمّر . « غزاهم بالنفود فغنم جمالهم وغرّب هادباً ورجاله . فكمن له العدو ، ووقع ممدوح بيد الشمامرة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شعيب العاه . جانا بخبره من نجوا و « حنّا » بتّل العامود » . وابنه سعود ؟ ذهب فريسة الغدر . « قتله كلاب بن غازي عند ملتقى وادي النعيم بوادي سرحان شمالي قراقر . جاءوه غادرين يقولون انهم بأمرة عودة ابي تايه — وعربان بن غازي يلبسون مثل عربان عودة — فصدقهم سعود وأنزلهم عليه فغدروا به . « ثوروا » البنادق مفاجأة على سعود ورجاله فقتلوه وقتلوا اربعة معه ، وشردوا . ولكن الباقين من رجالنا لحقوا بهم ، فأدركوهم صباح اليوم الثاني ، وساقوهم الى المكان الذي سال فيه دم سعود ، فذبحوهم ورؤوسهم الى القبلة ذبح الغنم » .

هي حياة البدو . وقد جاء الشيخ موسى من « ديرة الفلاخ باوربا » ينصحهم بان « يثوروا » بنادقهم على الانكليز بدل ان « يثوروها » بعضهم على بعض . جاء يوفق بين القبائل المتعادية و يستنهضهم في مناصرة الدولة العلية وحليفتيها المانيا والنمسا . وكان الامير نوري قد خرج من دمشق والحكومة تظن انه سيسعى والشيخ موسى لإنجاح المشروع . ولكن الحكومات لا ترجم بالغيب ، وقلما يفتح البدو قلوبهم في غير البادية .

قال الامير يخاطب الشيخ موسى في جلستها الاولى السياسية : « انت يا اخي تعلم ما بقلبي . انت تعلم اني لا أثق بالحكومة ولا الحكومة تثق بي . لولاك لكنت لا أزال اسيراً في الغوطة .... وهذه الحكومة تطلب مني ان أساعدها في محاربة الانكليز . تطلب مني انا النوري الذي حاولت مرةً ان تشنقه ، النوري الذي ظل سنتين في سجنها ، النوري الذي خلصته انت ياشيخ موسى من المشنقة ، تطلب منه هذه الحكومة الملعونة الوالدين ان يستنفر العربان لمحاربة الانكليز ... وهذه الحكومة والله يا اخي ، تضرنا اذا أرادت وتضر اهلنا وعشائرنا . يلزمنا ثياب . ويلزمنا قمح ويلزمنا شعير لخيلنا . وهذه لا نجدها اليوم في غير الشام . واهل الشام لا يبيعوننا اذا عادينا الحكومة . اهل الشام يكرهون الحكومة مثلنا و يساعدونها علينا . فهل تلومني اذا وعدت الحكومة بالمساعدة . « سأعطيها » الوعود بالكلام والكتابة .... ولكني أدفع الميرة والله . أساعد الحكومة بمالي . أطعم الملعونة الوالدين من الذهب . سامي باشا (المشير يومئذ » اكل أرطالاً من ذهبي وعندما لجأت اليه حكم علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالشنق .... هي تبغي الرجال والجمال للحرب . وتقول لي انها تساعدني بعد الحرب على ابن الرشيد . والله اعلم اذا كانت تكذب او تصدق في قولها » .

عند هذا قطع نواف عليه الحديث قائلاً : « هي تكذب يا ابي » وكيف تساعدنا وانور باشا يرسل الى ابن الرشيد السلاح والذخيرة والمال ؟ ... وهذا الانور هو الذي صالح ابن سعود واعطاه «النياشين» ثم اعطى ابن الرشيد السلاح والمال ليحارب به .... ولولا هذا الانور لما نكث ابن الرشيد عهد الصلح بيننا وبينه وبينه وبين ابن سعود ... اعلم ياشيخ موسى ان ابي يدفع الى الحكومة اربعة آلاف ليرة كل سنة و يشتري بماله مايلزمه من السلاح والذخيرة ليحمي عشائره و يحمي رعايا الحكومة في القرى المجاورة للبادية . اما ابن الرشيد فالحكومة « تنطيه » كل شهر مائتين وثلاثين ليرة عثمانية و « تنطيه » كل مايبغي من السلاح والذخيرة ، فتقويه علينا ، فيسلب « طروشنا » و يقتل رجالنا .

الامير نوري : « وما العمل يابني نواف ؟ هل يمكنك ان تحارب ابن الرشيد ؟ واين سلاحنا من سلاحه ؟ اربعة آلاف بندق على خمسة عشر الف موزر . وخرطوشنا مايفع . لا ياوليد . خيره لنا ان نطيع الحكومة وننتظر . لننتظر الى ان تنتهي الحرب . الحكومة تبغي السلم بين العشائر . و « حنا » الرولا نبغي السلم — نحتاج الى السلم » .

الشيخ موسى : « الحق مع والدك يانواف . اتحدوا فيخافكم ابن الرشيد وتخافكم الدولة .... وانا الكفيل ان عشائر الفدعان يصالحونكم ... و يجب ان تصالحوا ابن الرشيد » . وكان عودة ابو تايه حاضراً فافصح عما في صدره وكان في ذلك اصرح من النوري وابلغ من النواف . قال عودة : « وهل تظن الحكومة اننا لا نفهمها ؟ تقول لنا : السلم . وهي تبغينا للحرب . هي لاتثق بنصارى سورية ولاتثق بدروز حوران ، و يلزمها جمال لتمشي الى مصر . وهي تعرف ان مازالت القبائل متعادية تعتذر كل قبيلة وتحيلها على عدوها . اقول انا ابو تايه للدولة : دونك وعبطان [1] . و يقول

(١) وعبطان بن غازي شيخ الحويطات الذين كانوا يومئذ معاونين لحويطات عودة ابي تايه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لها النوري : دونك والفدعان . و يقول لها النواف : دونك وابن الرشيد . وهم يقولون لها قولنا و يحيلونها علينا . النتيجة ؟ كلنا نظل في خيامنا ... اي بالله يلزمنا السلم . يلزمنا لمصلحتنا لالمصلحة الحكومة . اكتب يا شيخ موسى الى الحكومة وقل لها اننا نمشي معها بشرط ان تردع اعداءنا وهم في الظاهر اصحابها » .

الشيخ موسى : « وهل تمشي وعربانك مع الجيش الى مصر » .

عودة : « لااخرج من البادية ما زال فيها خصومات ولكن اذا صالحت عبطان وابن الرشيد واعطتني الحكومة السلاح والذهب — يلزمني ذهب وسلاح — امشي والله ، امشي الى مصر » . وكان في مخيم الامير بعض شيوخ العمارات فقال احدهم مجيباً على كلمة للشيخ موسى في الجهاد : « الجهاد هو ان نحمي خيامنا وطروشنا » .

وفي لغة المتمدنين الجهاد هو الحرب في سبيل الوطنية فيقول الانكليزي مثلاً : الجهاد هو ان نحمي بريطانيا العظمى وممتلكاتها . لا فرق إذن بين عقلية البدوي وعقلية الانكليزي . فلما ذا يُكرم هذا في جهاده و يتهم ذاك بالوحشية ؟ .

« واعلم ياشيخ موسى » — الكلام لشيخ آخر من شيوخ العمارات — « اننا لا نكره الانكليز ولا نحبهم . ولكن اذا اقتربوا منا وحاولوا التعدي علينا فالويل لهم . هم الآن يحاربون الدولة فلتحاربهم الدولة بجيشها » .

الامير نوري : « كلامك زين . ولكن يجب ان نطيع الحكومة . الله ينصر الدولة » . ثم قال للشيخ موسى وهو عائد وإياه الى خيمته : « لا بد من الكلام السياسي . فلا يسوّد وجهي احد مع الحكومة » .

وظل النوري يتدرع بالسياسة — ظل يداوي ويتلون — الى ان ظهر في الحجاز بعد سنة الكرنل لورنس فغلب الخيّال الانكليزي النسر الالماني .

اجل ، قد ظفر لورنس بما لم يظفر به الشيخ موسى فجمع شمل العربان وفي مقدمتهم الرولا والحويطات وضمهم تحت لواء الشريف — ولواء الاحلاف — وكان الفضل الاكبر في فوزه للذهب الانكليزي .

ومعلوم ان الليرة الانكليزية تزيد الليرة العثمانية عشرين غرشاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعلوم — اليوم ! — ان عقليـة اولئك الاحلاف مثل عقلية شيخ العمارات الذي قال : « الجهاد هو ان نحمي خيامنا وظروشنا » .

فهل يلام العرب اذا هم فضلوا لورنس والشريف على موسى والجمال ؟ هل يلامون في ما تقاضونه للدفاع عن الانكليز والفرنسيس ونحن نرى اليوم ما يتقاضانا الاجنبي في دفاع اسمي عنا ؟ ! .

قد كشفت لنـا الايام بعد تسع سنوات من الهدنة ، عن بواطن الاحلاف ونياتهم فصرنا نعذر العرب لانهم باعوا الدولة العلية بل الدول الوسطى بعشرين فضة . بل صرنا نأسف لان الدول الوسطى انسحبت يومئذ من المزايدة ، والا لانقلبت الآية ولباع العرب لورنس والشريف ودول الاحلاف جمعاء بعشرة لا بعشرين فضة .

عضو المجمع العلمي العربي

امين ريحاني

عصر المأمون

« للدكتور احمد فريد رفاعي المجلد الاول ٤٧٢ المجلد الثاني ٤٣٩ المجلد الثالث »

« ٣١٧ طبعت في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م »

هذا كتاب مفيد جوده مؤلفه فنال به لقب « دكتور » من الجامعة المصرية بدرجة ممتازة جداً وقد تفضل المؤلف فأطلعني عليه وهاك ما كتبته من الملاحظات بحرفه :

أدخلت السرور على نفسي لتفضلك باطلاعي على كتابك «عصر المأمون» وهو في المخطوطة وذلك لجلالة الموضوع في ذاته ، ولان المأمون نسيج وحده في الخلفاء ، وخير خليفة جمع العلم والعمل ، يحبه ويحب عصره كل من كان له حظ من تاريخ العرب ، وكانت سيرته اجمل سيرة في الملوك الذين عقمت الايام ان تلد شبيهاً لهم ، وحق لكل جيل ان يتغنى بمناقبه ، ويتغزل بمحامده ، وهي القدوة وهي العبرة ، ما دام يدرس تاريخ الخوالف .

أعجبت بتنسيق كتابك وفيه من الامتاع والابداع شيء كثير ، وراقني سلاسة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبارتك ، ودقة تصرفك ، وحسن مأتاك في البحث ، وصحة حكمك على معظم الحوادث ولقد قربت بهذه العناية منال الاستفادة على الطالبين ، ونفذت الى ظلمات التاريخ فخرجت منها بشهاب قبس ، أنار ناحية كبرى من نواحي عظمتنا الغابرة ، قرأت الوفاً من الصفحات فكتبتها في بضع مئات ، مشفوعة بجميل استقرائك وصحيح استنتاجك ، وصورت للناس مدنية عصرنا الذهبي حتى كادوا يلمسونه ويحسونه ، فكان حقاً على المنصفين ان يمدحوا غناءك ، ويحمدوا دؤوبك وعناءك .

لا جرم ان هذه الصفحة الكبيرة من تاريخ العرب خليقة بالدرس والتأمل كل حين ، لانها ثمرة نضج العقل الاسلامي الذي ينادي على وجه الدهر ، بلسان الحال والمقال ، ان الامة التي استطاعت منذ اكثر من الف عام ان تعمل للحضارة هذه الاعمال الجسام ، مستعدة في كل زمن ان تأتي بمثلها او أحسن منها .

وما رأيت شهد الله في كتابك بجملته وتفصيله ، ما يصح ان تؤاخذ عليه ، الا تصويرك بعض أدوار الامويين في صورة باهتة استندت في اخذ بعض خطوطها وأشكالها على مؤلفين متعصبين ، كاليعقوبي وابن الطقطقي والمسعودي والاصفهاني ممن لم تكد تسلم نفوسهم من الشعوبية وكان التشيع غالباً عليهم . فكتبوا ما كتبوا مدفوعين بعوامل سياسية ، وجوزوا بث دعوتهم بانواع من التحيل والتلفيق .

وان من يسبون الشيخين وابنتيهما الطاهرتين سباً قبيحاً ، و يتعبدون الخالق بذلك ، و ينعتون الخليفتين الاولين « بصنمي قريش » وهما ما هما من المكانة المجمع عليها في الاسلام ، يغضون ولا يبالون من بني أمية . وهناك الدماء المطلولة ، والطوائل المتأصلة والملك المستأثر به ، والاهواء التي جعلوا من اركانها الانحاء على كل من لم يشايعهم .

وان من تجنوا بنشر نحلتهم ، والدافع اليها الدنيا لا الدين ، جنوا واي جناية على الدين والدنيا . ومن أشنع أعمال المنحرفين عن بني أمية وضع الاحاديث الملفقة على الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن خلقوا ما قالوا على الدين وصاحبه ، كيف يجدون حرجاً في اختلاق الاكاذيب على الامويين ؟ وفي يقيني اننا لو حاسبنا الامويين والعلويين حساباً تاريخياً دقيقاً ، لاثبتنا لكل منهم حسنات وسيئات ، وما خرجوا كلهم عن البشرية ، يعشقون الدنيا و يقاتلون منافسيهم عليها ، والتفاوت بين الفريقين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الاثر الذي اثره كل منهم في كيان الامة ، اما العصمة فالشرع والعقل لم يثبتاها لاحد من الناس ، على نحو ما يحاول الطالبون ان يثبتوها لأئمتهم ، ويقولون في غيرهم ما قاله مالك في الخمر .

لا يحكم التاريخ على الناس الا باعمالهم ، واعمال الأمويين التي اعتز بها الاسلام والعرب ماثلة للعيان على الزمان ، فماهي ياترى أعمال من سوّدوا صحيفتهم ظلماً وعدواناً ، وبالغوا فيها بسبيله حتى خرجوا عما يقول العدو في عدوه ، فأخرجوهم عن الملة ، وقضوا بان شيعتهم المغموطة الحق ، المثلوبة التراث ، من عنصر الملائكة الكروبيين اواعلى من ذلك .

وأرى ياصاح ان لا تغتر ايضاً بما نسب لبعض المشاهير مما فيه تنقيص بني أمية . فرسالة الجاحظ التي استشهدت بها وانت شاك في نسبتها اليه ، قد تضمنت افذاعاً يخلفائهم ، لا تثبت بالنقد الصحيح انها من تأليفه ، وهو امام العقل والعلم ، فقد نسبوا للجاحظ عدة رسائل ومنها رسالة الاخلاق التي نشرتها منذ مدة ، وترجح بعد حين انها ليحيى بن عدي . وقد انتحلها ايضاً محيي الدين بن عربي في فتوحاته .

ومما نحلوه لابي عثمان رسالة مناظرة الربيع والخريف المطبوعة في مطبعة الجوائب بفروق وبأقل تأمل تعرف انها من كتابة القرن الحادي عشر اوالثاني عشر للهجرة . وكم من رسالة او كتاب نحلت للمشهورين من سلف الامة ، ولكم نسبت اليهم اقوال ماخطرت لهم ببال . ان رسالة الجاحظ هذه التي وضعها من دسوا كثيراً من الجمل في نهج البلاغة تأييداً لسياستهم قد قصدوا بها شيئين ، ترويج النغمة التي يضربون على أوتارها ليهزوا بها أوتار قلوب الموافقين والمخالفين ، ثم الحط من مرتبة الجاحظ في نظر العقلاء .

وما قلته في بعض المصادر الشعوبية الشيعية أجهر به ، ولا دهان في الحق ولا هوادة ، عند الحكم على بعض الكتب التي اعتمدت ، وكان الاولى الرجوع الى الاصول المنقولة منها مثل « تاريخ التمدن الاسلامي » و « مجاني الادب » و « مشاهير الخطباء » ثم ان روايات « الاغاني » و « حلبة الكميت » و « المستطرف » ليست مما يعتمد عليه في تحليل اخلاق خليفة ، ذلك لان العقل يرد الاقاصيص الموضوعة على يزيد بن عبد الملك واستهتاره بغرام سلامة وحبابة مارواه الاصفهاني ليسلي قراءه بالغرائب كما روي خبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية وما ألى ذلك . والعقل يرد كل الرد ما اتهم به الوليد بن يزيد في خمرياته التي فاقت كما قلت خمريات يزيد بن معاوية .

وقولهم ان يزيد حمل معه كلاباً في الصناديق لما ولي الحج لهشام ، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها عليها ، وحمل معه الخمر وأراد ان ينصب القبة على الكعبة و يشرب فيها الخمر . ولعمري كيف يجرأ الوليد الثاني ، على مافيه من مجون واستهتار بالشعائر ، ان يأتي مثل هذه المنكرات ، ولم يكن هشام بالغرّ المحمّق حتى يوليه الحج ، وهو على هذه الصورة من الاخلاق . اللهم ان هذه التهمة وتهمة يزيد بن معاوية في تعاطي الشراب الى آخر ماتهموه به ومنها عشقه عمته ، مما اختلقه من لاخلاق لهم . ولو كان يزيد بن معاوية على ماذكرنا ماسكت رجال الدين عنه ، وفيهم بقايا الصحابة والتابعين ، وقد شهدنا الوليد قتل في أقل من هذا ثم تقوّلوا عليه كثيراً وتزيدوا .

وقولك (ج ١ ص ٧٠) ان دولة بني أمية كانت مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة ، مستهترة بالمعاصي والقبائح فيه مبالغة وغلو ، وليت شعري اذا كانت دولة بني أمية مكروهة مذمومة اما كان ذلك عند اعدائها فقط ممن عادوا العباسيين ولعنوهم ايضاً « راجع رسالة ابي بكر الخوارزمي الى شيعته » ، ثم اي دولة رضي الناس كلهم عنها ، وقد شهدنا ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلوا لاختلاف السياسة ، فكيف بعد هذا نستغرب من اشمئزاز بعض الناقمين على الامويين ، حتى رموهم بما هم منه براء ، وهل تنكر محل الدعاية من تأسيس الدول وقيام الممالك ، فاشتهار الأمويين بالمعاصي والقبائح والحكم على دولتهم كلها حكماً عاماً لا يسلم به العقل السليم ، ولا النقل الصحيح .

ومن الروايات المدخولة قصة عريب جارية المأمون وعشقها جعفر بن حامد (ص ٤١١) فانها لا يصح وقوع مثلها من سفلة الناس وناهيك بصيانة المأمون واخلاقه الطاهرة وكرامة بيته ، ولأدنى نظر ندرك انها موضوعة كل الوضع ، وكان الاولى تحليلها او نبذها بدون تحليل .

هذا وان الكلام على الاسفار غير المعتمدة لا يصدق على كتب أخرى من تأليف المعاصرين ، كالبستاني في مقدمة الالياذة وميور في كتاب الخلافة ، والموازرين في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المملة الاسلامية ، وكتابات نللينو و براون وامثالها ، ممن كتبوا للعلم على الاغلب وهضموا مادونوا . واذا غلطوا في بعض أحكامهم فلا يكون غلطهم عن قصد ، و يبرؤهم من الملامة اذا عرفنا ان ما كتبوه لم يكن العامل فيه التجارة على اختلاف ألوانها . وقد تطمئن النفس لما كتب هؤلاء في العرب والمسلمين ، اكثر من اطمئنانها الى غيرهم من المعاصرين والغابرين ، ممن مزجوا العلم بالاهواء فارتفعت الثقة من مروياتهم ، وحار البصير في أحكامهم فلا يعيرها الا نظر التقزز ، وتسرب الشك الى مصنفاتهم فلم تعد الايدي تتناولها الا بحذر ، لان اهلها أثبتوا في كل عصر انهم من اكثر الاهواء ضراوة على الاسلام والعرب على مافصل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه منهاج السنة .

وليتك أوجزت في اخبار بني أمية ، وفي ايراد بعض القصائد المطولة ، وفي نماذج الشخصيات البارزة في عصر المأمون وتوسعت في مقومات الحضارة في القرن الثاني والثالث من مثل الكلام على مجالس العلم والنقل وبيت الحكمة واثر سهل بن هرون فيها ، فان هذا العظيم لم توفه حقه من الوصف ، وهو والجاحظ فرسا رهان ، وكذلك عمرو ابن مسعدة واثره في البلاغة والسياسة ، لا يقل عن احمد بن يوسف الكاتب .

اما وصف ميور للمأمون بانه لا يستطيع مع اعترافه بعدله ان ينزهه من الجنوح في بعض الاحايين الى الجور واستعمال القسوة من غير مبرر ، وانه تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبابرة والعتاة من أسلافه ، فقول فيه نظر . لانا رأينا المأمون عفا حتى عن كثير ممن نزعوا الى نزع خلافته وسلطانه ، وما عرفت عنه القسوة ولا الجور . واذا رويت روايات مدخولة في بعض كتب المحاضرات قد تكون قرينة لتأييد هذه النظرية ولو من بعض الوجوه ، فلا يكون منشؤها الا اولئك الذين حلفوا ان لا يمسكوا الأقلام الا اذا نالوا من سلطان الراشدين وبني أمية ، وبني هاشم معاً لانهم استأثروا بالملك دونهم ، وذهبوا بالفضل في نشر كلمة الاسلام وبث العروبة في الشرق والغرب ، فكان جزاؤهم عند من خالفوهم ان يطعنوا في كل كبير ، ليقولوا خصومهم اما من تطهرت نفوسهم من كل عيب فهم جماعتنا ليس الا .

ولعل فيما عزي الى المأمون من الاعمال ، وعده بعضهم قسوة وجوراً ، هو عند كثير غيرهم حلم وعدل . وما كان لرجل في مثل ملك المأمون الضخم ان يدير شؤون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أمته زمناً ولا يهفو هفوةً ، وفي الحق ان من العنت ان يقال لمن يعدل مئة الف مرة ، ويحلم مئة الف مرة ، ثم يغلط مرة واحدة ، انك ياهذا قاسٍ جائر . وليست القسوة والجور في فطرته ولا فيما ثبت من هديه . ونحن في الواقع لم نستثبت الدواعي التي ادت الى امور لم تتفق مع عقليتنا ، ولا عرفنا منزع المنتقد عليه ومرماه فيما انكرناه . فقد قال غستاف لوبون : اذا كان من الصعب على الفرد ان يكتشف الاسباب الحقيقية التي قدرت عليه افعاله الخاصة ، الا يكون من الصعب ايضاً على مؤرخ ان يدرك الاسباب السرية المستورة بضباب الدهر من الوقائع التي يجهل أصحابها انفسهم مباديها .

هذا رأيي الخاص في سفرك النفيس الذي صنعته وجودته ، فخدمت الآداب العربية بما انتجت خدمة نافعة ، بقي عليّ ان أهمس في أذنك قائلاً ان هذه الهفوات المعدودة في كتابك لاتقدح فيه بل ترفع من شأنه ، وكل عامل يكبر جهادك وعملك ، ولذلك ادعو لك بحسن التوفيق الى اخراج أمثال «عصر المأمون» للناس ، فتنشر بينهم مادة جيدة منتقاة ، تنير العقل ، وتهذب الروح ، وتسلي الفؤاد ، وتذكرنا ماضياً زاهراً نحن متصلون به على كل حال ، ولا نفتأ وأحفاد أحفادنا على اكمال سلسلته .

والرجاء معقود في هذا الباب على الاستكثار من وضع الكتب المنقحة المحررة على أسلوب العصر ، المشبعة بروح التحقيق ، الحالية بالرشاقة وجمال الفن ، لتخطو الامة العربية خطوة واسعة في سبيل المجد والمدنية ، هذا ومني عليك وعلى ارض طيبة أنبتتك الف تحية وسلام .

م . ك

كتب ورسائل مختلفة

(١) المجموعة الاقتصادية لغرفة تجارة حلب . السنة الثامنة لسنة ١٩٢٦ طبعت بالمطبعة المارونية بحلب باللغتين العربية والفرنسية .

(٢) مكايد الحب في قصور الملوك تأليف ثورتن هال وترجمة الاستاذ السيد اسعد خليل داغر عني بنشرها السيد الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر ص ٢٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) قصة للدكتور احمد زكي ابو شادي بك اسمها « احسان مأساة مصرية تلحينية » طبعت في المطبعة السلفية بمصر في ١٣٨ صفحة ·

هدايا كتب

أهدى الينا الاستاذ الشيخ ابراهيم المنذر كتابه الذي سماه (كتاب المنذر) وهو طبعة ثالثة للكتاب المذكور منقحة ومزيدة · وقد طبع في مطبعة الاجتهاد ببيروت سنة ١٩٢٧ وعدد صفحاته ١٦٠ صفحة ·

وأهدى ايضاً الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بالفجالة كتاب (رمل وزَبَد) للاستاذ جبران خليل جبران ألفه بالانكليزية وترجمه الارشمندريت انطونيوس بشير ثم نشره الشيخ يوسف · وموضوع الكتاب حكمة وفلسفة مفرغتان في القوالب التي اعتاد الاستاذ جبران افراغ حكمه فيها · وصفحاته ٨٦ صفحة ·

وأهدي الينا (ديوان ابن سهل الاندلسي) جمعه وشرحه وضبطه السيد احمد حسنين القرني وقد طبع سنة ١٩٢٦ على نفقة المكتبة العربية بشارع درب الجماميز بمصر·

وكذلك أهدي الينا (ديوان بشار بن برد) جمعه وشرحه وذيله بالهوامش والتعاليق السيد احمد حسنين المذكور وهو مطبوع على نفقة (المكتبة العربية) ايضاً ·

وكتاب (عظة وذكري) وضعه الدكتور محمد عبدالحميد بك مدير مستشفى الملك وكبير جراحيه وقد ضمنه خواطر اجتماعية صحية طيبة في ١٣٨ صفحة حسنة الطبع والورق مزينة بالرسوم وقد التزم طبع الكتاب ونشره السيد نجيب مثري صاحب مطبعة المعارف بمصر ·

(سمير الاطفال) هو عنوان كتيبات صغيرة الفها الاستاذ السيد محمد الهراوي الشاعر المصري المشهور وأودعها من الشعر الرشيق والصور الجميلة ما يلذ للصغار و يسهل عليهم مبادئ الآداب والأخلاق · وقد أهدي الينا بضعة من تلك الكتيبات فاذا هي غاية في اتقان الطبع والتصوير والتجليد · وقد تولت نشرها (لجنة التأليف والترجمة) بمصر ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net